جاك لندن

أوديسا الشمال

وقصص أخرى

تعريب : سقار عبظو



أوديسا الشمال
وقصص أخرى

تأليف : جاك لندن

تعريب : سقار عبظو

تصميم الغلاف : جمال سعيد

الطبعة الأولى **2003**

عدد النسخ **1000** نسخة

جميع الحقوق محفوظة للمترجم

موافقة وزارة الإعلام رقم // 43974 // تاريخ 3/ 1/ 1999

يطلب الكتاب على العنوان التالي :

خطوات للتوزيع

دمشق – هاتف : 5621972

جوال : 094-203850

جاك لندن

أوديسا الشمال
سخرية بوربورتيك
قطعة من شريحة لحم

تعريب

سقارعبظو

خطوات للتوزيع

THE BEST SH[illegible] STORIES OF

JACK LONDON

AN ODYSSEY OF THE NORTH
THE WIT OF PORPORTUK
A PIECE OF STEAK

مقدمة

دعاني ذات مرة صديق ألماني إلى جزيرته الصغيرة جداً في جزر السلمون الجنوبية، وكان في السابق يعمل بحاراً على سفينة شــراعية. كان يمتلك شيئين محبّبين له جداً، آلة السدس(*). وصورة فوتوغرافيــة قديمة تبدل لونها مع مرور الزمن إلى اللون الأصفر.

أشار صديقي إلى الصورة قائلاً: هذا أنا وزوجتي، وذاك جــلك لندن، وتلك زوجته شارمين، لقد عرّف عن نفسه أنه كاتب عندمــا التقيت به.

أجبته؛ إنه كاتب مشهور.

أجاب بحسم، لا، كان بحاراً، ربما هو كتب، لكن في البـــدء كان بحاراً. تعامل مع القلم كمخرز الفتيل(**).

* – آلة السدس: آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية.

** مخرز الفتيل: أداة حديدية مستدقة الطرف تستخدم لفصل طاقات الحبل بعضها عن بعض.

لقد كان الألماني محقاً إلى حدٍّ ما، لكنه عجز عن إدراك الفكرة العظيمة مثل جاك لندن، كتب بقوة مخرز الفتيل، لكنه استطاع أيضاً برقة صياد حوت صنع منحوتة عظيمة في أسنان الحوت.

كان لدى جاك لندن القدرة على الفهم الغريب للمألوف، ولكثرة ما قاساه، قاده ذلك إلى الكتابة بمخرز الفتيل.

يوجين بورديك

جامعة كاليفورنيا

ولد جاك لندن عام 1876، عمل في شبابه بائع صحف، حمالاً على عربات الثلج ثم في تفريغ وتحميل المراكب، ثم اتجه للعمل في السفن في عام 1894، قضى في السجن في منطقة شلالات نياغارا 30 يوماً بتهمة التشرد حيث تعرف هناك على الطبقات العاملة المسحوقة وما تعاني من استغلال أرباب العمل لها.

انضم إلى الحزب الاشتراكي في أوكلاند وبدأ بالقراءة والكتابة، وأخذ طموحه يزداد لتحقيق حلمه أن يصبح كاتباً كبيراً.

مات منتحراً عام 1916 بعد أن ترك تسعة عشرة رواية، ثمانية عشر مجموعة قصصية، ثلاث مسرحيات وأكثر من مائة وخمسون مقالة وثمانية كتب عن المجتمع...

وأول رواية نشرت له عام 1902 وكان قد نشر أولى قصصه عام 1899 في مجلة أوفرلاند.

المترجم

أوديسا الشمال

أرسلت المزالج نواحها السَّرمدي بصوت النَّير ورنين أجــــراس كلاب المقدمة، فيما خيّم صمتٌ على الرجال المرهقين الذين قدمــوا مع كلابهم من البعيد.

كانت المزالج مثقلةً بما يشبه الصوان ، أرطالٌ من لحم "الموظ" المتجمد.

حلَّ الظلام ، والثلج يتساقط ناعماً مع خفقان الهواء بقطـرات كريستالية صغيرة جداً، ولا مخيمٌ لقضاء الليل.

لم يكترث الرجال بالدرجات العشر تحــت الصفــر، كــان الطقس دافئاً. رفع كُلٌّ من "ميرس" و"بتلس" غطاءي قبعتيهما عــن أذنيهما، بينما خلع "كيدماليموت" قفازيه.

بدأ يظهر على الكلاب نشاط جديــد بعــد إرهــاق منــذ الصباح الباكر.

بدا القلق واضحاً على الكلاب الأكثر مكراً، بنفاد الصبر من تقييد الأسيار، فانتصبت الآذان، ولهثت الخطم - مما أثار سخط الكلاب الأكثر فتوراً- تستحثهم بالعض ببراعة.

نبحَ كلب المزلجة الأولى نباحاً حاداً يُعبِّر عن الرضا، وجثم على الثلج ، وقذف بنفسه مقابل الطوق، ثم حذت الكلاب الأخرى حذوه.

بدأوا بتجميع أربطة ظهور الكلاب، شُدَّت السيور، وثبت المزالج، وتمسك الرجال بالعرائش اليمنى ، وارتفعت أقدامهم بسرعة شديدة الاهتياج تتفادى قطع المزالج الطويلة، ثم هتفوا يشجعون الكلاب.

استجابت الكلاب بنباحات بهيجة وهي تتماوج وسط الظلام، ثم بدأت العدو السريع.

"جي! "جي"!، صرخ الرجال، تعاقبت المزالج، مزلجة إثر مزلجة، ثم، بشيء من الحذر غادروا الممرَّ الرئيس نحو الجانب الآخر "كاللغرات"(*) أثناء الريح.

آنذاك، وصلوا بسباقات سريعة وقصيرة إلى نافذة "البرشمان"(†) المضيئة، التي كانت تروي قصة عن النزل، وهدير موقد اليوكون(‡)، وبخار قدر الشاي الفخارية.

---

* - اللغر: مركب شراع رباعي الأضلاع.

† - البرشمان: ورق نفيس شبيه بالرقوق.

‡ - موقد اليوكون: نسبة إلى نهر اليوكون

ستون من كلاب الأسكيمو،تنبح معاً بلا مبـــالاة ، أشـــكال فرائية متعددة ، قذفت نفسها بعنف فوق كلاب المزلجة الأولى.

فُتِحَ الباب بعنفٍ، ثم، ظهر رجلٌ يرتدي رداءً قصيراً قرمزيـــاً كالذي يرتديه رجال شرطة "نورث ويست" مبلـــلاً بالمـــاء حـــتى الركبتين وسط اهتياج بهيمي، يضرب برصانة ضربات خفيفة بنهايـــة طرف سوط غليظ.

ثم تصافحَ الرجال بالأيدي، ورُحِّبَ بـــ "كيدمـــاليموت" في غرفته الخاصة . انهمك "ستانلي" مع ضيوفه بعد أن رحب بهم وقـدم لهم الشاي الساخن. حشدٌ يصعب وصفه في أي وقت مضى أثنـــاء خدمة الملكة في نشر سلطتها أو توزيع بريدها.

كانوا اثني عشر شخصاً من جنسيات مختلفة،تتمـــيز حيـــاتهم المشتركة بنمطٍ محدد ، نحيفون ، لكنْ أقوياء، بدأبٍ وخبرة، شـــقوا طريقهم عنوةً خلال الممر الوعر، وجوه برونزية، أرواح غير قلقـــة حدقتّ قُدّماً إلى الواقع، نظرات راسخة وجلية، هم الذيـــن قـــادوا كلاب الملكة وأحدثوا خوفاً وهلعاً في قلـــوب أعدائـــها، تنـــاولوا منطعامها القليل، وكانوا سعداء. صنعوا مآثر، وعاشوا قصصاً مختلفةً.

تمدد اثنان منهم فوق سرير "كيدماليموت" ينشـــدان أغنيـــة أجدادهما الفرنسيين الذين أنشدوها عند دخولهـــم أرض "نـــورث ويست" وتزوجوا النساء الهنديات. سرير "بتلس" عانى انتهاكاً مشابهاً أيضاً. ثلاثة أو أربعة رجال أقوياء، حركوا أصابع أقدامـــهم وســـط

الأغطية في أثناء إصغائهم لرواية شخص ما كان يخدم على متن سفينة مع "وولسلي" عندما شقّ طريقه إلى "خارتوم". وعندما تعبَ، تحدث راعي البقر عن محاكم وملوك ولوردات وسيدات كان قد شاهدهم عندما جال "بوفالوبيل"* في العواصم الأوروبية.

في الزاوية، رفيقان - هجينان - في حملة عسكرية خاسرة، يصلحان عدة الحرب ويتحدثان عن الأيام السالفة عندما ثارت "نورث ويست" بعصيان مسلح، وكان "لويس رايل" ملكاً. حوادث مضحكة، نكاتٌ عاصفة، علتْ ثم صمتت، مخاطرُ عظيمة قرب الممر والنهر، تناولا أحاديث شتى، استعادا ذكريات الدعابات والحوادث المضحكة.

كان "ستانلي" يؤيد - بلا تفكير- هذا المحارب البارز المخلوع عن العرش الذي كان قد فهم صنع التاريخ، مدركاً أن الاستثنائي والخيالي هما حدثان مألوفان في روتين الحياة. مَرَّرَ تبغهُ النفيس بينهم بسخاء، كانت أحاديث الذكريات سلاسل صدئة مفكوكة، وأسفاراً منسيةً.

اقترب "ستانلي" من رفيقه في المخاطر الذي قال له وهو يبدأ بفك رباطي الموكازين(†)، حسناً، أنت تعلم مَنْ يكون راعي البقر،

* - بوفالوبيل: جاموس بري أمريكي والمقصود /بوفالوبيل/ وليم كودي الذي كان قد استلم وظيفة امداد عمال السكة الحديدية بالطعام ومقتل 4280 بوفالو. ولذلك لقب ببوفالوبيل عام 1868. من مسرحية الهنود الحمر لأرنست كوبين / تعريب توفيق الأسدي.

† - حذاء لا كعب له، مصنوع من الجلد الناعم ومرفوع الجلد من جوانب القدم وفوق أصابعها، حيث يتصل بقطعة جلدية على شكل حرف U فوق أعلى القدم.

وليس صعباً الظن أن الدم الإنكليزي يجري في عروقه، وفيما يتعلق بالأمور الأخرى , دمُ صبيان الغابة الجوالين والعدائين يعلم الله كيف تمازج مع دماء أخرى.

إن الاثنين اللذين قرب الباب من نسلٍ واحد.

ذاك غلامٌ بسروال صوفي ضيق مزخرف؛ حاجباه والتواءة حنكه يدلاَّن على أنه اسكتلندي يذرف الدمع في تيبة(*) أمه الداخنة. وذاك الضخم الذي يضع تحت رأسه معطفاً بقلنسوة، هجين فرنسي، أنت سمعته يتكلم، لا يشبه الهنديين اللذين مالا نحوه. أنت تعلم، عندما نشأت الذَّرِّيَّة في ظل حكم "رايل" حافظت القرابة الصريحة من ناحية الوالدين على القوانين، و لم يفقدوا مزيداً من الوئام مرة أخرى منذ ذلك الوقت.

ــ لكنْ ؛ أقول، ما معنى النظرة الكئيبة لذاك الذي قرب الموقد؟ أقسم، أنه لا يتكلم اللغة الإنكليزية. لم يفتح فمَهُ طيلة الليل!.

ــ أنت مخطئ. إنه يعرف الإنكليزية جيداً، هل راقبت عينيه عندما كان يصغي؟ أنا راقبته، ليس قريباً أو صديقاً لأي منهما. وعندما تبادلا الحديث بلهجتهما العامية، تستطيع أن تلاحظ أنه لم يفهم.

- أنا مستغربٌ! مَنْ يكون؟ دعنا نكتشفه.

* - خيمة من خيام الهنود الحمر مصنوعة من الجلد وعلى شكل مخروطي.

أمر "كيدماليموت" :

- النار ضعيفة في الموقد . ونظر مباشرة إلى الرجل .

امتثل له في الحال، وقد أثار تهذيبه شعوراً ما في داخله. همسَ "ستانلي"، أومأ "كيد" برأسه موافقاً، وضع جوربيه جانباً، ثم اختار طريقه بين الرجال الممددين نحو الموقد. عَلّق خفه الرطب وسط عدد لا حصر له من أوراق /الماتي/.

سأل بتردد: متى تتوقع الوصول إلى "داوسون"؟

تروّى الرجل لحظة قبل أن يجيب. سمعتهم يقولون، خمسة وسبعون ميلاً. حوالي ذلك، ربما يومان...... قالها بلهجة تافهة جداً كان من الممكن ملاحظتها، ما دام لا يتردد أو يحاول إيجاد الكلمات.

ـــ أكنتَ سابقاً في الريف؟

ـــ لا.

ـــ شمال غربي "تريتوري"؟

ـــ نعم.

ـــ وُلدتَ هناك؟

ـــ لا.

ـــ حسناً، لقد ولدتَ أنت حيث كان الشيطان؟ أنت لا تَمُتّ إلى هذه بصلةٍ. دفع "كيد" يدَه فوق الكلب الذي

يقود المزلجة فلامست اثنين مـــن رجـــال الشـــرطة المتمدديـــن في سرير "ســـتانلي".

ـــ من أين أتيتَ؟ رأيتُ سابقاً وجوهاً تشبه وجهك، أعتقـــد أنني لا أستطيع تذكُّر المكان تماماً.

أجاب "كيد" إجابة غير متصلة بالموضوع.

ـــ أنا أعرفكَ.

وفي الحال تبدّل مغزى أسئلة "كيدماليموت".

- في أي وقت رأيتني؟ أين؟.

- لا، رفيقك، كاهنه، "باستيليك" منذ زمن طويل.

- هيم، اسألني إذا أنا رأيتك، "ماليموت".

- هيم، أعطني (خضفه) ، أنا لا أتوقف طويلاً. أنت سمعتـــه يقول عاركني؟.

- أوه. أنت رفيق ذلك المتاجر بجلود ثعـــالب المـــاء مقـــابل الكلاب؟

أومأ الرجل برأسه علامة الموافقة، أفرغ غليونه بعنفٍ، مشمئزاً من هذا الحديث. أطفأ "كيدماليموت" المصبـــاح الثلجـــي نصـــف الذائب، وانسل مع "ستانلي" تحت الأغطية.

ـــ حسنٌ، مَنْ يكون؟

ـ لا تعلم، لقد تفاداني بعد أنْ أصغيت اليه، ثم، كفَّ عن الكلام كسكون الرياح. لكنْ لديه شريكاً يثير فضولك. أدهش سكان الشاطئ طوال ثمانية أعوام انقضت - نوع من اللغز- وصل في جوف الشتاء القاسي قادماً من شاطئ بحر "بيرنج" في الشمال، على بعد آلاف الأميال من هذا المكان. ورحلَ كأن الشيطان خلفه. لم يكتشف أحدٌ من أين جاء أبداً، لكنْ ؛ يجب أن يكون قدومه من بعيد جداً. كان السفر قد أرهقه كثيراً، وعندما حصل على الطعام من "المبشر السويدي" في "كولوفين باي"، التمس طريق الجنوب - سمعنا بذلك فيما بعد- آنذاك، ترك طريق الشاطئ وتوجه نحو يمين "نورث ساوند". طقسٌ مخيفٌ، رياحٌ شديدةٌ، عواصف ثلجية، لكنه اجتاز بسلام ما لم يستطع اجتيازه ألفٌ من الآخرين الذين هلكوا، وتاه عن "سان ميشيل"، ثم بلغ أرض "باستيليك". لقد فقد الجميع إلاَّ كلبين ،ً وكان ماضياً مع المجاعة تقريباً.

كان متلهفاً كي يشتكي ذلك للأب "روبيو" أيضاً، وذلك من أجل تزويده بالمؤونة بعيداً عن الشاطئ. لكنْ؛ لم يستطع أن يدعه يأخذ أي كلب، وذلك لأنه كان وحيداً ينتظر وصولي ليتابع رحلته.

السيد "يولسيس" علم كذلك ببدء الرحلة بلا كلاب، وبَددَّ لأجل ذلك هنا، وهناك، عدة أيام، وعلى مزلجته حزمة من جلود ثعالب البحر المملحة، ثعالب البحر، أنت تعرفها، إنها تساوي قيمتها ذهباً.

في "باستيليك" أيضاً، التاجر الروسي "شايلوك" العجوز الذي يملك كلاباً للمقايضة، لم يهدر وقتاً طويلاً في المساومة، لكن عندما يتجه شخص ما جنوباً مرة أخرى، تنتصب الكلاب على قوائمها الخلفية برشاقة الجراء. بهذا الأسلوب، كان "شايلوك" العجوز يمتلك جلود ثعالب البحر، جلودٌ جميلة جداً. أحصينا عددها، فوجدنا أن الكلاب جلبت له خمسمائة قطعة على الأقل. كان هندياً إلى حدّ ما والقليل الذي رواه، يدلّ على أنه عاشر الرجال البيض. بعد ذوبان الجليد على سطح البحر، أفاد خبرٌ من جزيرة "نونيفاك"، أنه وصل إلى الجزيرة كي يتزود بالمؤونة، ثم رحل. وهذا كان بداية ما عرفته منذ ثمانية أعوام.

ـــ الآن، من أين جاء؟ وماذا يفعل هنا؟ ولماذا جاء؟

ـــ إنه هندي، لا أحد يعرف من أين، ضابط النفس على غير عادة الهنود.

لغز آخر من الشمال، يجب أن تحله "ستانلي".

أجاب "ستانلي": شكراً جزيلاً.

ثم، صار تنفُّس "كيدماليموت" ثقيلاً. لكن مهندس التعدين الشاب صار يتفرس خلال الظلام الدامس، منتظراً هزّة التهيج الجنسي التي حركت دمه ببطء إلى الزوال. وفي أثناء نومه، تابع دماغه العمل، جال ما بين الأبيض المجهول، يشقُّ طريقه بجهدٍ

وصعوبة مع كلابه في الممرات الوعرة اللانهائية، وشاهد الرجال أحياءً، وكدحَ، ثم يموت مثل الرجال.

في الصباح التالي، قبل طلوع الشمس بساعات، الكلب يجرُّ، ورجال الشرطة ينسحبون نحو "داوسون"، بعد الاستراحة القصيرة التي منحتها السلطات التي تدرك مصالح صاحبة الجلالة وتقرّ مصائر كائناتها الأقل شأناً. بعد أسبوع ظهروا في نهر "ستيوارت"، حملٌ ثقيلٌ مع الرسائل بسبب الماء المالح. لكنْ؛ كانت كلابهم تُستبدل بكلاب أكثر نشاطاً، ومع ذلك كانت كلاباً. كان الرجال يتوقّعون نوعاً من التوقف طلباً للراحة، إن هذا "الكلونديك" كان جزءاً جديداً من الجزء الشمالي للبلاد، وهم يرغبون في رؤية أشياءً قليلة في المدينة الذهبية، حيث يتدفق الغبار كالماء، والملاهي الراقصة تدوي مرحاً صاخباً لا ينتهي.

جَفَّفوا جواربهم ودخّنوا غلايينهم المسائية باستمتاع كما فعلوا في زيارتهم السابقة. شخص أو اثنان شجاعان فكّرا بالفرار وإمكانية عبور الصخور الكثيرة غير المكتشفة نحو الشرق، ثم من ذلك المكان، قرب وادي "ماكنزي"، وصولاً إلى الموطن القديم المألوف في مقاطعة "شيبويان".

شخصان أو ثلاثة قرروا العودة أيضاً من ذلك الطريق إلى منازلهم عندما تنتهي مدة خدمتهم، وبدأوا على الفور يخططون،

تطلعوا بأملٍ ولهفة إلى المشروع المنطوي على المخاطرة حذو رجل المدينة الذي يرغب في قضاء أيام العطل في الغابات.

بدا ذو جلود ثعالب البحر قلقاً جداً، وعلى الرغم من ذلك حصل على بعض المتعة في المناقشة، وفي النهاية انتحى بـ"كيدماليموت" جانباً وتكلما بعض الوقت بنبرات ضعيفة. نظر إليهما "ستانلي" بفضولٍ، وتعمّق اللغز عندما ارتديا القبعتان والقفازات ثم خرجا.

عندما عادا، وضع "كيدماليموت" ميزان الذهب فوق الطاولة ، ووزن حوالي ست أونصات ثم وضعها داخل كيس الشخص الغريب. ثم انضم إليهما صاحب الكلب الذي يقود المزلجة. كان عمله محدداً.

في اليوم التالي، ذهبت الجماعة إلى أعلى النهر، وأخذ ذو جلود ثعالب البحر أرطالاً من دويدات ، ثم اتجه عائداً نحو "داوسون".

قال "كيدماليموت" موجهاً حديثه إلى "ستانلي" متسائلاً: هل تعلم ماذا يصنع بها؟ إن المتسول المسكين رغب التخلي عن الخدمة لسببٍ ما، على الأقل أنها تبدو إلى حدٍّ بعيد شيئاً هاماً له، ومع ذلك لم يرغبٍ إفشاء السر، أنت تلاحظ أنها كمية كبيرة جداً. لقد تعاقد لمدة عامين، والطريقة الوحيدة لحصوله على حريته كانت بتأمين مخرج لنفسه. لم يستطع الهروب، لذلك بقي هنا، وكان متضايقاً. قرر

آنذاك أن يصل إلى "داوسون". لكنْ ؛ لا أحد عرفه، لا يملك ستاً، وأنا الشخص الوحيد الذي تكلم معي بضع كلمات.

بعد ذلك قابل نائب الحاكم، وعقد ترتيباً بحجة مقنعة استطاع الحصول بها على المال مني - قرض بفائدة- ووعد أن يسدد، خلال سنة واحدة، أو، إذا أنا رغبتُ، أراد أن يجعلني ثرياً نوعاً ما، لكنْ ، لم يُبْدِ ذلك، ثم تكلم! لماذا، عندما قصدني شبه معتذر، وكان راغباً في البكاء، يعتذر عما وعد به، جثى أمامي على الثلج حتى أنهضته، هذر حولي كالمجنون. أقسم أنه سيعمل حتى النهاية، لمدة سنوات وسنوات. الآن لم يستطع أن يطيق وجود خيبة أمل. سألته؛ ما النهاية، لكنه لم يرغب في الكلام. قلتُ ربما هم يحتملوه حتى نصف الممر الآخر، ثم، هو لا يرغب الذهاب إلى "داوسون" خلال عامين وعندئذ يكون التأخير أكثر مما ينبغي.

لم أشاهد رجلاً أبداً على هذا النحو طيلة حياتي. وبينما كنت أقول له أنني سأدع المال معك، كنت أقوم بإنهاضه عن الثلج مرة أخرى.

أخبرته أن يمعن النظر بذلك على ضوء رهان الدويدات. تأمل! أكان يملكهم؟ لا، سيدي! أقسم، أنه قد أعطاني كل ما وجده، جعلني ثرياً فوق أحلام حب اكتساب المال واكتنازه وجميع هذه الأشياء.

الآن، الرجل الذي وضعَ حياته ووقته مقابل رهان الدويدات، يجد صعوبة لبيع مقدار نصف السلع التي وجدها. شيء ما خلف كل هذا يا "ستانلي"، أنت أبديتَ انتباهاً لذلك تقريباً. نحن سوف نسمع منه إذا مكث في المقاطعة......

وإذا هو لم يمكث؟

عندئذ سيصاب مزاجي السليم بصدمة، وأكون قد أضعتُ ستين أونصة ونيفا.

خيّم الليل الطويل بطقسه البارد، وبدأت الشمس لعبتها القديمة باختلاس النظر على امتداد خط الثلج الجنوبي قبل أن يسمع أحد برهان دويدات "كيدماليموت".

وآنذاك، صباحٌ قارس في وقت مبكر من السنة في شهر كانون الثاني، موكب كلبٍ مرهق بأثقال سُحبت إلى داخل كوخٍ أسفل نهر "ستوارت".

ذو جلود ثعالب البحر كان هناك، ويسير بجانبه رجلٌ كأن الإله نسيَ كيف خلقه. قطعاً تحدث الرجال عن النجاح والسلب وخمسمائة دولار قذرة دون أن يذكر اسم "اكسيل كندرسون" ولا استطاعوا التحدث عن روحٍ تعبر خلال نار المخيم أو حفلة السمر بدون دعوته للحضور. عندما وهنت المناقشة، لمعت من جديد إشارة عابرة للمرأة التي قاسمته ثروته ومصيره. وكأن اهتمام "أكسيل

كندرسون" للإله كان تذكراً بارعاً للأيام القديمة، ثم أهمله خلف عادات الرجال الذين كانوا يولدون عندما خُلقَ العالم الصغير.

بقياس سبعة أقدام حلق بزيه الفاتن الذي وسم ملك "الدورادو" خصره، أما رقبته وأطرافه فكأنها لمارد، قوته العضلية تعادل ثلاثمائة باوند، حذاؤه الثلجي أوسعَ بيارد من أحذية الرجال الآخرين.

وجه "روفن" بجبينه المتجعد وفكه الضخم وعينيه الزرقاوين، يروي حكاية أحد الذين عرفوا قانون القوة. من الشعيرات الصفراء للذرة اليانعة، شعرٌ يلبس قشرة متجمدة برشاقة ونعومة كيوم عبرَ الليل، وسقط إلى الأسفل معطفه من جلد الدب.

بدت عليه تقاليد البحر الغامضة عندما كان يدفع الكلاب أماماً وهو يتمايل أسفل الممر الضيق، وضع الطرف الغليظ من سوط كلبه مقابل باب نزل "كيدماليموت"، كأنه قرصان البحر النرويجي في غزو جنوبي، ربما يتوعد من أجل الدخول إلى بوابة القصر.

كشف "بيرنس" عن ذراعيه الأنثويتين وعجن خميرة الخبز وهو يلقي نظرات خاطفة مختلفة نحو ثلاثة ضيوف.

الشخص الغريب الذي لقبّه "كيدماليموت" بـ "يولسيس"، ما يزال مسلوب القدرة على الحركة، لكن كان اهتمامه موزعاً بين "أكسيل كندرسون" وزوجة "أكسيل كندرسون" الجالسة قبالة

زوجها الضخم كزهرة نحيلة على جدار . شعرت بالإرهاق أيام الرحلة. وأجابت بكسلٍ على مزاح "كيدماليموت"، وعندما نظر "ستانلي" نظرة شاملة إلى عينيها السوداوين، نشط دمه البارد.

فيما يتعلق بـ "ستانلي" كان رجلاً متمتعاً بالصحة، ويشاهد قليلاً من النساء في عدة شهور . كانت أكبر منه، إضافة لذلك هندية، لكنها كانت مختلفة عن سائر الزوجات الشيطانات اللاتي كان قد قابلهن، كانت متعودة الأسفار - كانت موجودة في مقاطعته مع الأخريات- هو استنتج من الحديث، وهي عرفت كثيراً من أمور النساء اللاتي يعرفن سلالته، والمعرفة الأكثر لم تكن في جوهر الأشياء، استطاعت صنع الطحين من السمك المجفف بالشمس أو فراش في الثلج، وبعد ذلك عذبتهم بإثارة الشهوة بتقريب وإبعاد بشكل متواصل ألوان شتى من وجبات الطعام، وسببت دائماً خلافاً غريباً بسبب قيامها بالتذكير بألوان من أطباق طعام سابقة متعددة ، كانوا قد نسوها تقريباً.

هي عرفت مواطن الموظ، الدب، الثعلب الأزرق النادر، وقوازب(*) البحار الشمالية الوحشية. وكانت بارعة في المعرفة التقليدية للغابات والأنهار، وحكايات كُتِبَتْ عبرَ الإنسان والطير والوحش في كتاب مفتوح غلافه الثلج الناعم.

* - قوازب: ج قازب: مجموعة من الحيوانات البرمائية الوحشية. تعيش في البحار الشمالية.

لمحَ "ستانلي" التلألؤ الساطع في عينيـــــها، أيضـــاً، وكأنها قرأت قوانين المعسكر. هذه القوانين المبتكرة من "البتلز" اللامرتويـــن في زمن حينما اهتاجت دماؤهم، وكانوا رائعين لسذاجة عـــــاداتهم المهذبة.

إذن ؛ هذه زوجة "أكسيل كندرسون"، المرأة التي اشتهر اسمها بالسفر برفقة زوجها عبر الجزء الشمالي من البلاد.

على المائدة، ضايقها "كيد ماليكوت" بوقاحة الصديق القـديم، وتخلص "ستانلي" من الخجل في بداية التعارف الشخصي، ثم شـــارك في المناقشة.

لكن السيدة "كندرسون" احتفظت برباطة جأشها في مناقشـة غير متكافئة، بينما زوجها مبطئاً في الإدراك، لكنه أطـــــرى. كـــان فخوراً بها كثيراً، اهتمامه ونظراته إليها توحي بأهمية المكانة التي تحتلها في حياته.

ذو جلود ثعالب البحر يأكل بصمت، مُنسياً في معركة المرح، وقبل أن ينهي الآخرون طعامهم، انسحب وذهب وسط الكـــلاب. بعد ذلك سحب شريكه المسافر قفازيه وسترته الفرائية المقلنســـة ثم تبعه مباشرة.

لعدة أيام لم يهطل الثلج هنا، وانزلقت المزالج على سطح ممـــر "اليوكون" الجليدي الأملس الزلق بسهولة.

قاد "يولسيس" المزلجة الأولى، وفي الثانية "ستانلي" وزوجة "أكسيل كندرسون"، بينما "كيد" والمارد ذو الشعر الأصفر في المزلجة الثالثة.

قال مخاطباً "كيد": إنها تندفع وحدها إلى الأمام، وأعتقد أنها تندفع في خط مستقيم. بدا أنه غير موجود قط، لكنه روى قصة جيدة، وأظهر خريطةً كنت قد سمعت بها منذ أعوام مضت في مقاطعة "كونتي".

كنتُ أرغب أن تذهب وحدك، وأقسم بصراحة أن يتخلى عنها إذا دخل أي شخص هناك، كان شخصاً غريباً. لكنْ ؛ عندما أعود سوف تحصل على أول منحة، وأدعمك مالياً، وأعطيك علاوة على ذلك نصف حصة في موقع في المدينة.

صرخ قائلاً: لا، لا، وكأنها محاولة أخرى للاعتراض.

أنا أواصل هذا، وقبل أن أفعل، إنها تحتاج اثنين، إذا كانت صحيحة. لماذا؟

أيوجد ممر مستنقع ثان ضيق ؟ يا رجل ؛ هل تسمع؟

ممر مستنقع ثانٍ! إنه كوارتز، أنت تعرف، لست المتبر، وإذا فعلنا ذلك بشكل صحيح، سوف نجمع كامل الشيء - مليون فوق مليون- أنا سمعت بالمكان سابقاً. وأنت كذلك، سوف نبني بلدة - آلاف العمال- مجاري مائية جيدة- مجرى سفينة تجارية-ننشئ تجارة

كبيرة– مخطط سكة حديد– ربما، مؤسسات لنشر الأخشاب–صناعة مصرفية خاصة بنا– شركة تجارية– نقابة، تكلم! احتفظ بهدوئــــك فقط حتى أعود!.

وصلت المزالج إلى مكان تقاطع الممــــر مــع مَصَــبّ نهــر "ستيوارت". البحر متواصل الجليد، رقعة واسعة تمتد بعيداً نحو الشرق المجهول.

كانت القباقيب الثلجية منعزلة عن أربطة المزالج. هزّ "أكسـيل كندرسون" يديه، وسار نحو المقدمة، رنّمت فردتا قبقابــه الثلجــي الضخم بوضوح نصف ياردة على السطح الطري، ثم وَضَّب الثلــج حتى لا تتعثر الكلاب في تقدمها. تخلفت زوجتــه خلــف المزلجــة الأخيرة، يبدو أن لديها خبرة طويلة في معالجة الحذاء غير المناسب.

كان السكون يتقطع بحفلات الـــوداع البهيجــة، نبحــت الكلاب، ثم تكلم ذو جلود ثعالب البحر بسوطه على دولاب العربــة الحرون.

بعد ساعة واحدة، اتخذ القطار صورة قلم أســود، يزحــف ببطء، يخط خطاً مستقيماً طويلاً رائعاً على امتداد صفحـــة ورقــة الفولسكاب.

-2-

بعـد عـدة أسـابيع، في إحـدى الليـالي، كـان "ستانلي وكيدماليموت" يحلاّن مسألة شطرنج في صفحة ممزقة مـن مجلة قديمة.

كان "كيد" قد عاد من منجمه ، وأخذ اسـتراحة قصـيرة استعداداً لصيد الموظ. وكان "ستانلي" قد قضى قرب الجدول والممـر طيلة فصل الشتاء تقريباً، وقد بدا جائعاً لمدة أسبوع قضاه سـعيداً في كوخه.

ـــ يتدخل الفرس الأسود، وضربة الملك. لا، ذاك لا يرغـب التقدم. انظر، النقلة التالية....

ـــ لماذا دفعتَ البيدق مربعين إلى الأمام؟ مصمم على أخـذه، وبواسطة حركة الفيل غير العادية......

ـــ لكـنْ ؛ يسـتمر أو يتوقـف! ذلـك يـترك نقطـة ضعف و......

ـــ لا، إنه دافع عنه. انطلق كـــــي يحـــرز تقدمـــاً ســـريعاً، سترى عمله.

ـــ إن ذلك ممتع جداً.

في الوقت التالي، طرق شخص ما على الباب، وقبل أن يقــول "كيد" ادخل، انفتح الباب، شخص ما، ترنح إلى الداخل.

التفت "ستانلي" الذي يرقب مربعاً واحداً، ثم وثـــــب علـــى رجليه، الرعب والشوق جعلا "كيد" يدور حوله جفلاً، ظنّ أمامـــه شيئاً سيئاً.

تمايل الشخص بعماء نحوهما. ابتعد "ستانلي" تدريجيـــاً حـــتى وصل إلى المسمار الذي ثبت به لوحة "سميث ودايسون".

همس "ستانلي": كيد، يا إلهي! مَنْ يكون هذا؟ ألا تعلم؟

أجاب "كيد" وهو يتزلق بعكس الاتجـــاه: يبـــدو في حالـــة تجمد...

ـــ احترس! ربما يكون مخبولاً، قال ذلك مُحذراً، ارجع مـــن خلف انغلاق الباب.

اندفع الشخص إلى الأمام على الطاولة. الوميـــض الوهـــاج أغشى عينيه. كان يضحك، ويصدر صوت قوقأة تدل على الطرب. عندئذ، فجأة، انحنى إلى الخلف بانجذاب مفاجئ إلى سرواله الجلـدي، وبدأ يغني نشيد البحارة:

عندما رحلوا، تمايلوا حول حلقة الرحوية(*)، وعبر البحر عـن الازدراء بشخرة في آذاهم:

سفينة يان – كي– تعالي أسفل النهر

اسحبوا! أولادي المتنمرين، اسحبوا.

برغم معرفة الكابتن الذي يوجهها

اسحبوا! أولادي المتنمرين! اسحبوا

جون – واحد– من اجوان كاهو – لي– ين–ا–الجنوبية

اسحبوا! أولادي......

توقف فجأة، تمايل مع زمجرة ذئبية نحو رفّ اللحم، وقبـل أن يتمكنا من إيقافه، مزّق بأسنانه قطعة كبيرة من لحم الخـتزير النيـئ المملح. جرى صراعٌ عنيف بينه وبين "كيد"، لكن قوتـه المجنونـة هجرته فجأة، مثلما أتى، ثم تنازل بضعف عن الغنيمة. أمسـكاه، ثم، أجلساه على كرسي بلا مسند، وألقى بنصف جسده على الطاولـة. جرعة صغيرة من الويسكي عملت على تقويته، إلى حـدّ اسـتطاع غمسَ ملعقة في علبة السكر الصغيرة التي وضعها أمامه "كيـد"، ثم بدت شهوته إلى الطعام متخمة. وفي أثناء ذلك، أعد "سـتانلي" – المرتجف من هول المشهد– قدحاً مكثفاً من مرق لحم البقر.

* – حلقة الرحوية: أداة يديرها الملاحون رافعين بها الأثقال أو المراسي.

اضطرمت العيون بجنون كئيب، لمعت وبهتت مع كل كلمة. اتّسم الوجه الصغير الهزيل بقليل من الملامح الإنسانية.

تجمُّد إثر تجمُّد، لسع بشدة وشَكَّلَ طبقة لقشرة جرحٍ فوق ندب نصف مندمل أصيب به سابقاً، سطح جاف لونه أسود قان، مؤشر بالشقوق المحزنة، حيث بدا اللحم الأحمر يظهر شيئاً فشيئاً.

كانت ثيابه الجلدية وسخة ومهترئة، الفراء الذي بدا مسفوعاً وذائباً يدلّ على أنه كان مستلقياً على نار.

أشار "كيدماليموت"، إلى حيث السفع، كان الجلد يبدو متروعاً قطعة بعد قطعة، الإمضاء المروع للمأساة.

ـ من - تكون- أنت؟ لفظ "كيدماليموت" ذلك ببطء ووضوحٍ.

لم يعرْ الرجل اهتماماً.

ـ من أين أتيت؟

ـ سفينة / يان- كي/ وصلت إلى أسفل النهر. كانت الإجابة مرتعشة.

ـ لا تجزع، قال "كيد" وهو يصافحه في مسعىً للبدء بمتابعة الحديث بوضوح أكثر. لكنَّ الرجل ، زعق من التلامس، صفعَ اليد على جانبه بألم واضح.

نهض ببطء على قدميه، نصف مستلق على الطاولة.

ـــ ضحكت عليّ - هكذا- والكره في عينيها، وهي لـــن - تستطيع- المجيء.

اضمحل صوته وهو ينهار على الكرســـي عندمـــا أمســـكه "كيدماليموت" بمعصمه، ثم صرخ به: مَنْ؟ مَنْ لا يريد المجيء؟

ـــ هي، "يونكا"، ضحكت، وضربتني ، هكذا ، ثم هكـــذا، وعندئذ......

وعندئذ.......،

ـــ وعندئذ ماذا؟

ـــ وعندئذ تمدد هادئاً جداً على الثلج، هو يكـــون، هادئـــاً على ـــ الـــ ـــ ثلج.

نظر "كيد وستانلي" إلى بعضهما بيأسٍ.

ـــ مَنْ يكون على الثلج؟

ـــ هي "يونكا"، نظرت إليّ والكره في عينيها، وعندئذ...،

ـــ نعم، نعم.

ـــ وعندئذ، أخذت المدية، هكذا، مرة، مرتين..... كـــلنت ضعيفة. رحلتُ أنا ببطء شديد. في ذلك المكان يوجد ذهب كثـــير، كثير جداً.

ـــ أين تكون "يونكا"؟ على الرغم أن "كيدماليموت" عرفَ، ربما هي ميتة على مسافة ميل. وهزّ الرجل بوحشية، كررها ثانيـــــة وثانية، أين تكون "يونكا"؟ من هي "يونكا"؟

ـــ هي - تكون على- الثلج.

ـــ تابع! قال "كيد" وهو يضغط معصمه بوحشية.

ـــ هكذا - أنا- أرغب- أن أكون -على- الثلج- لكـــــن- كنت- مديناً-لأدفع. كان ثقيلاً - كنت- مديناً- لأدفع- مدينـــاً- لأدفع، توقف ترديد الكلام من مقطع واحد في أثناء محاولته البحـــث عن شيء في جيبه، ثم أخرجَ كيساً متيناً من جلد الغزال. الديـــــن - للدفع-خمس-ليرات- من الذهب- دويده- رهان- كيد- مـــــال- يـــ- موت-أنا...، وسقط الرأس المنـــــهك علـــى الطاولـــة، ولم يستطع، كيدماليموت رفعه مرة أخرى.

قال "كيد" وهو ينفض الغبار عن المحفظة! إنها لـــ "يولسيس"، ظننت أنها مع "أكسيل كندرسون" والمرأة.

تعال نضعه بين الأغطية، إنه هندي، وسوف يجتـــاز المرحلـــة الخطرة ، ثم يروي الحكاية. وبينما كانا ينزعان ثيابه، شاهدا آثـــــاراً قاسية لطعنتي مدية غير مندملتين قرب ثديه الأيمن.

-3-

سأروي الحوادث التي حصلت معي بطريقتي الخاصة، وأنتم ستسمعون وتفهمون، سأبدأ من البداية، عن نفسي والمرأة، ثم بعد ذلك، أتحدث عن الرجل.

تقدم ذو جلود الثعالب البحرية نحو الجانب الآخر من الموقد أثناء قيام البعض بالمحافظة على اشتعال النار، خوفاً أن تتلاشى النعمة البروميثيوسية(*) فجأة.

رفعَ "كيدماليموت" المصباح الثلجي نصف الذائب وجعله بموضع بحيث يسقط شعاعه قوياً فوق وجه الراوي.

زلق "ستانلي" جسده فوق طوق السرير، ثم انضم إليهم.

أنا أدعى "ناس"، الزعيم، وابن الزعيم. ولدت بين الشروق والغروب في بحر الظلام، في "أميك"(†) آبائي. كان الرجال

* - البروميثيوسية: نسبة إلى بروميثيوس سارق النار من السماء ومعلّم البشر استعمالها.

† - أميك: زورق من زوارق الأسكيمو مكسو بالجلد..

يكدحون طيلة الليل بالمجاديف، والنساء تُخرجن المياه الـــتي قُذفـــت وسطنا من الأمواج، ثم ، اشتبكنا مع العاصفة. تجمد الرذاذ القاســـي فوق صدر والدتي حتى عبرَ تنفسها مع عبور المد والجزر. لكنْ ؛ أنـني رفعت صوتي مع الريح والعاصفة ، توطّنا في "آكاتان"...،

ــ أين؟ سأله "كيدماليموت".

ــ "آكاتان" في جزر "اليوتيان"، "آكاتان" خلف "شيكنيك"، خلف "كارولاك"، خلف "اينماك"، كما أقول، أقمنا في "آكاتـــان" التي تمتد في وسط شرق البحر من الكون. حرثنا البحر المالح من أجل السمك، الفقمة، ثعالب البحر. شَيدّنا منزلنا على طرف صخـــــري أجرد بين حافة الغابة والشاطئ الأصفر، حيث تتواجد مواقع زوارقنا الجلدية. لم نكن كثيرين، والدنيا كانت صغيرة جداً. هناك إلى الشرق توجد الأرض الغريبة، جزيرة تشبه "آكاتان"، وهكذا اعتقدنا أن كـل الدنيا كانت جزيرة، و لم نهتم. كنتُ مختلفاً عن قومي. هناك علـــى رمال الشاطئ قِطعُ الأخشاب الملتوية وألواح أخشـــاب القـــوارب. وأذكر أن على شفا الجزيرة التي أشرفت على المحيط بثلاثة ممـــرات، كانت توجد شجرة صنوبر، نَمتْ هناك سَبطة وناعمة وطويلة.

قالت: جاء رجلان، تجولا هنا وهناك، مكثا يراقبان عدة أيام. جاءا من البحر البعيد على متن القارب المستلقي على الشاطئ، كانـا ذوي لون أبيض مثلك، وضعيفين كالطفل الصغير عندمـــا تهـــرب الفقمة بعيداً ويعود الصيادون إلى منازلهم بلا صيد. لقد عرفت هـــذه

الأمور من الرجال والنساء العُجز، وهم نقلوها عن آبائهم وأمهاتهم أيضاً. ذلكما الرجلان الأبيضان الغريبان، لم يرتاحا في البدء لأساليبنا. زادا قوة بسبب الزيت والسمك، وشيّدَ كل منهما منزلاً، تزوجا من نسائنا، ثم رُزقا أطفالاً. أحدهما أنجب جدّ والدي! كما قلتُ أنا مختلف عن قومي لاكتسابي قوة دم ذلك الرجل الأبيض الغريب الذي برز من البحر.

وقالت الشجرة أيضاً: كانا مشاكسين، وتبارزا مع رجالنا وفازا، نصّبا نفسيهما زعيمين، وسنَّا القوانين بدلاً من قوانينا القديمة، وصار الولد، الابن لأبيه، وليس لأمه. الولد الأول يمتلك جميع الأشياء التي كانت تخص والده قبله، أما الأخوة والأخوات فيسعون لكسب العيش بأنفسهم. وسنّا قوانين أخرى.

أظهرا أساليب جديدة في صيد السمك وقتل الدببة التي كانت وافرةً في الغابات. علّمانا إنشاء مخازن أكبر من أجل المجاعة. لكنْ؛ بعد مدة من زعامتهما، بدأ صراع الزعيمين الأبيضين مع بعضهما. وامتد الصراع عبر أولادهما وأحفادهما، وتفاقمت العداوة البغضاء حتى أيامنا هذه.

من كل عائلة عاش شخص واحد على الأقل كي يحافظ على سلالة آبائه. وأنا السليل الوحيد الذي تجري في عروقي دمه، أقود رمحه الطويل وسط الأجسام الأخرى. أما من العائلة الأخرى، فكانت فتاة، "يونكا"، "يونكا" التي تعيش مع والدها. أنا و"يونكا"

وريثا العداوة والصراع، بعد أن جرف التيار ذات ليلة إلى الشاطئ والدي ووالدها في أثناء حدوث المد، عندما كانا في رحلة صيد السمك.

فوجئ الجميع، هزّ العجز رؤوسهم وقالوا؛ سوف يُستأنفُ الصراع، متى أنجبت "يونكا" أولاداً، أو أنجبت أنا. أخبروني بذلك بوصفي الصبي، حتى صرتُ أصدق، وبدأت أنظر إلى "يونكا" الخصم التي ستكون أماً لأولادٍ يتصارعون معي.

فكرتُ في هذه الأمور يوماً بعد يوم، وعندما أصبحتُ شاباً يافعاً، صرت أسأل؛ لماذا ستكون خصمي، وكانت الإجابات؛ لا نعلم، لكن هذه عادات آبائك...... واستغربتُ من أولئك الذين كانوا مرهقين وقد قرروا وجوب الاقتتال.

كنتُ شاباً يافعاً. وقالوا أيضاً؛ علي الإسراع بالزواج حتى يصبح لدي أولاد قبلها، ولأنني الزعيم، والناس تنظر إليّ بسبب مآثر وقوانين آبائي والثروة التي أملكها، قررتُ الزواج. لكنْ؛ لم أعثر على عذراء مناسبة.

كذلك كان الصيادون يطلبون من والدة "يونكا" أن تزوّجها حتى تنجب أولاداً يكسبون قوةً كي يقضوا عليّ.

في مساء أحد الأيام، بينما كنتُ عائداً من صيد السمك، وأشعة الشمس تميل إلى الغروب، والزوارق الجلدية تتسابق فوق البحر الأبيض منطلقةً بسرعة مع الرياح الحرة.

فجأة، صار زورق "يونكا" بمحاذاتي، ثم نظرت نحوي هكـذا، وشعرها الأسود يطير كسحابة الليل وقد بلل الرذاذ خدّيها.

كما قلتُ، كانت الشمس تميل إلى الغروب وضوءها يملأ العيون، وأنا شاب يافع، وبطريقة واضحة، عرفتُ نداء الحب بالحب.

حركتْ رأسها ، ونظرتْ إلى الخلف بمسافة جدفتين. نظرتْ، وكأنها الفتاة "يونكا" فقط، ثم عرفت ثانية صرخة الشوق.

صرخ الناس عندما مررنا بمحاذاة زوارقهم الجلدية الكسولة، وتركناهم خلفنا بعيداً. "يونكا" مسرعة بالتجديف، وقلبي كسطح المركب المنتفخ، أنا لم أفزْ بالسباق. اشتدت الريح، ابيضَّ البحرُ، ثم، ارتفعنا، كالفقمات على عجيزاتها تواجه الرياح. ضحكنا مع خيوط أشعة الشمس الذهبية.

كان "ناس" نصف منحن خارج الكرسي، في وضع جسماني وكأنه يقوم بالتجديف ويخوض السباق ثانية.

نقطةُ ما، عبرَ الموقد، لاحظ اندفاع الزورق الجلدي وشعر "يونكا" الطائر. كان صوت الريح يطن في أذنيه، ملحٌ، يضرب بقوة مراراً في ثقبي أنفه.

وصلت إلى الشاطئ، ضحكتْ، ثم توجهتْ إلى مترل والدها.

في تلك الليلة، راودني تفكير عظيم، تفكير جدير بزعيم شعب "آكاتان".

ذهبتُ إلى مترل والدها، عندما كان القمر في كبد السماء ونظرتُ إلى بضائع "ياش- نوش" المكدسة جانب الباب، "ياش- نوش" الصياد القوي الذي كان يريد الزواج من "يونكا" ويصبح أباً لأولادها.

رجالٌ آخرون أيضاً، كان كل منهم يضع كومة بضائع أكبر من الآخر، لكنْ ؛ جميعها رُفضت.

ضحكتُ للقمر والنجوم، ثم ذهبتُ إلى مترلي حيث أُخزن ثروتي التي جمعتها من رحلات عديدة وكانت أضخم من ثروة "ياش- نوش" بأصابع يدّ واحدة.

سمك مجفف، أربعون من جلد الفقمات، ونصف مثله من الفراء، وكل جلد مربوط إلى فمه ببطين كبير مملوء بالزيت، وعشوة جلود دببة قتلتها في الغابة الربيع الفائت، عقودٌ وأغطية وألبسة قماشية قرمزية، كسبتُ كثيراً في التجارة من القوم الذين يعيشون إلى الشرق والذين حصلوا عليها من القوم الذين مازالوا يقطنون إلى ما وراء الشرق. نظرتُ إلى كومة "ياش- نوش" وضحكتُ. أنا الزعيم في "آكاتان" وثروتي كانت أضخم من ثروة كل رجالي الفتيان، ووالدي صنعَ مآثر وسنّ لهم القوانين، وجعل أسماءَهم تتناقلها الألسن.

في صباح اليوم التالي، نزلتُ إلى الشاطئ وبطرف عيني ألمحُ مترل والدة "يونكا" فوجئتُ أن عرضي الثمين ما زال كما هو،

ولاحظتُ ابتسامات على وجوه النساء اللاتي كن يتهامسن بـــأمور خبيثة. كانت والدة "يونكا" ماكرة، وأنا ازددتُ غضباً للعار الـــذي وضعتُ نفسي فيه أمام قومي. ثم، في أثناء الليل أضفتُ أشياء أكـــثر حـــتى أصبحت الكومة ثروة ضخمة، ووضعت بقربها زورقي الجلدي الذي تعادل قيمته عشرين زورقاً، وفي الصباح، لم تكن الثروة موجودة.

آنذاك، أقمتُ مراسم الزفاف، حضر حشد كبـــير، وحـــتى القاطنون إلى الشرق جاؤوا من أجل طعـــام الوليمـــة وتذكـــارات مهرجان الهدايا.

"يونكا" أكبر سناً مني بأربعة شموس، بطريقـــة حســـبنا بهـــا السنين. وأنا يافع، لكنـــني كنـــتُ الزعيـــم، وابـــن الزعيـــم، ولم تكن مشكلة.

في أثناء ذلك، ظهرت سفينة في عـــرض المحيـــط، ثم ازدادت وضوحاً بأشرعتها التي تدفعها نسمات الريح.

كان الرجال يعملون بجهد، يضخون الماء عن ظهر الســـفينة الذي يسيل عبر الفتحات الجانبية.

في مقدمة المركب، جلس رجل ضخم يراقب عمـــق الميـــاه، يصدر أوامر بصوت دوي. عيناه زرقاوان باهتتان من تأثـــير الميـــاه العميقة، يكسو رأسه شعر كثيف كعرف أسد البحر، أصفر كحبـــل مغزول من أوراق المانيلا الذي يغزله البحارة.

قبل ذلك بعام، شاهدنا سفناً تجوب المحيط بعيداً، لكنْ ؛ هــذه المرة الأولى التي تصل سفينة إلى الشاطئ.

هربت النساء والأطفال إلى المنازل، بينما – نحن الرجــــال– اصطففنا على الشاطئ في مواجهة السفينة والرماح في أيدينا.

عندما اشتمت مقدمة السفينة الشاطئ، لم يعر الرجال الغربــاء أي انتباه لنا، أو، كانوا منهمكين في أعمالهم الخاصة.

مع حدوث الجزر، أمالوا "السكونة"(*)، وأصلحوا ثقباً كبـيراً في أسفلها.

وعند حدوث المد، كدج† البحر الهائم "السكونة" نحو الميــاه العميقة، عندئذ جاؤوا نحونا وقدموا هدايـــا، واعتـــبروا أنفســـهم أصدقاء لنا.

توبعت الوليمة بعد عودة النساء،ورحبتُ بالضيوف وقدمـــتُ لهم هدايا المهرجان – قدمتُ الهدايا لبقية الضيوف أيضاً، ثم خصصت لهم غرفة خارجية.

زعيم "آكاتان" أنا، ذو الشعر الكثيف كعرف أسد البحر كان موجوداً، طويلاً وقوياً، مع وطء قدميه تهتز الأرض.

---

* – السكونة: مركب شراعي ذو صاريان أو أكثر.

† – كدج: جرّ مركباً بواسطة حبل مشدود إلى مرساة.

نظر إلى "يونكا" ويداه تطوقان خصره، ظل حتى غابت الشمس وظهرت النجوم، ثم مضى إلى مركبه.

أخذت "يونكا" من يدها وسوية نحو مترلي وسط الحشد الفرح وتفوهات النساء الخبيثة بمقتضى عاداتهن، لكن لم نعر انتباهاً. بعد ذلك غادر الحضور ومضوا إلى منازلهم.

لم تنته آخر ضجة حتى جاء زعيم البحر الهائم ووقف بقرب الباب، يحمل زجاجة سوداء.

أنت تعلم، كنتُ مراهقاً فحسب، وقضيتُ كل أيامي في طرف العالم. وعندما شربت من الزجاجة السوداء، أصبح دمي كالنار، توهج قلبي كالزبد المتطاير من الأمواج المتكسرة على الجرف. بينما جلست "يونكا" في زاوية الغرفة وسط الجلود، تراقب بصمت، وقد اتسعت حدقتا عينيها خوفاً مما تشاهده.

نظر إليها مباشرة وأطال النظر. ثم دخل رجاله مع حزم بضائع، وكدس أمامي ثروة لا توجد في كل "آكاتان". بنادق كبيرة وصغيرة، مسحوق بارود وخردق وظروف ورقية ومعدنية، فؤوس فولاذية، خناجر حادة، ووسائل جذابة، أشياء غريبة لم أشاهدها من قبل قط.

عندما أوضح لي بإشارة منه أن هذه الأشياء ستكون لي، ظننته الرجل العظيم، لكنه، أشار أيضاً إلى "يونكا"، أرادها أن تذهب

معه في سفينته بعيداً، هل تفهم؟ "يونكا" ستذهب معه بعيداً في سفينته!

اضطرم دم أجدادي هياجاً في عروقي، وفجأة، اندفعتُ برمحي، لكن كحول الزجاجة كان قد سرق الحياة من ذراعي، ثم أمسكني من رقبتي هكذا، وطرق رأسي على الجدار، وكنتُ ضعيفاً كالطفل الوليد، أطرافي لم تعد تحملني.

صرخت "يونكا" واستلقت متشبثة بأشياء المترل بيديها. قام بسحبها من شعرها الأصفر نحو الباب، ثم حملها بين ذراعيه الضخمتين.

ضحكتُ بصوت كصوت ذكر الفقمة في المجرى.

زحفت باتجاه الشاطئ وطلبت المساعدة، لكن الجميع خائفون، ما عدا "ياش- نوش"، الذي تلقى ضربة بالمجداف على رأسه أسقطته على الرمال بلا حراك.

رفعوا أشرعة السفينة بأصوات الغناء، ومضت بهم بعيداً مع الريح.

ولرغبة القوم بعدم سفك الدماء في "آكاتان"، فقد أبدوا ارتياحاً لما حدث.

لم أفعل شيئاً أو أتفوه بكلمة ، وانتظرتُ حتى اكتمل القمر، ثم وضعتُ السمك والزيت في زورقي وأبحرتُ باتجاه الشرق.

شاهدتُ جزراً عديدة، وأقواماً شتى. تكلمتُ مع الناس بالإشارات، أسأل عن "السكونة" والرجل ذي الشعر الكثيف، ودائماً، يشيرون باتجاه الشرق. قضيتُ الليالي في أماكن غير مألوفة، تناولتُ أطعمة غريبة، قابلت وجوهاً غريبة، سخر مني الذين ظنوا أنني طائش، وأحياناً، الرجال العجز يوجهون وجهي نحو الضوء ويباركونني، وعيون الشابات تزداد نعومة لدى سؤالهن عن السفينة الغريبة و"يونكا" وعن رجال البحر.

وهكذا، وعبر البحار الهائجة وجنون العواصف، وصلتُ إلى "بونالاسكا"، حيث وجدتُ "اسكونتان" ، لكنْ ؛ لا علاقة لهما بالتي أبحث عنها. عندئذ تابعتُ نحو الشرق، وما زال العالم ينمو دائماً أكبر. وفي جزيرة "يوناموك"، "كاديك"، "أتوكناك"، لم أسمع أخباراً عن السفينة. وفي أحد الأيام وصلت إلى أرض صخرية، فشاهدتُ رجالاً يحفرون في الجبل حفراً ضخمة، ينتزعون صخوراً ويضعونها في "سكونة" ليست ضالتي. أطعموني وجعلوني أعمل معهم. وأعطاني قبطان "السكونة" بعض المال وطلب مني المغادرة، لكنْ ؛ علمت أنهم سيتوجهون جنوباً، فطلبت منه مرافقتهم.

في البدء ضحك، لكن بعد حديث قصير مع رجاله وافق. وبدأتُ أساعدهم في أعمال السفينة. وهكذا، غدوتُ بعدئذ كواحد منهم أرفع الحبال، وأثني ثنيات الأشرعة القاسية بصرخات مفاجئة، أتناوب على الدولاب.

لم يكن العمل غريباً علي، بسبب نسب آبائي لرجال البحر.

كنتُ أظن أن العثور عليه مهمة سهلة، وذات مرة، بعد أن أصبحتُ فرداً من أفراد السفينة لحنا اليابسة، ثم دخلنا الميناء، بحثت بين "السكونات" العديدة.

سفن كثيرة تمتد أمام الرصيف لمسافة ميل وتبدو كالأسماك الصغيرة، ذهبتُ إليهم ، وسألتُ عن الرجل مقصدي، ضحكوا، وأجابوا بألسنة متعددة.

علمت أنهم يأتون من أقصى أرجاء الأرض. توجهتُ إلى داخل المدينة أتفحص الوجوه. كانوا كسمك القد(*)، عندما تجتمع على الضفاف بوفرة، لم أستطع إحصاءهم، أصابتني الضجة بالذعر حتى لم أستطع السمع، وشعرتُ بالدوار.

تابعتُ دون انقطاع أعبر الأرض التي طربت تحت أشعة الشمس الدافئة، المحاصيل الوفيرة تنتشر في السهول، مدن كبيرة مكتظة بأولئك الرجال السباكين مثل النساء، ألسنتهم تلوك كلمات كاذبة وقلوبهم سوداء بتلهف شديد للذهب. وقومي في "آكاتان" كانوا دائماً سعيدين بالقنص وصيد السمك، واعتقادهم أن الكون صغير.

---

* – سمك القد: من أنواع السمك يتناولوه في شمال المحيط الأطلسي.

كانت نظرات "يونكا" وهي عائدة إلى المـــترل مـــن صيـــد السمك، صورة راسخة في ذهني، وكنتُ أعلم أنني أستطيع إيجادهـــا متى حل الوقت المناسب.

تسير مساءً في ظلمة الليل خلال الممر الضيـــــق الهـــادئ، أو تقودني في صباح مندى عبر الحقول الكثيفة الرطبة، وفي عينيها وعـــد منحته لي وحدي.

وهكذا، تجولتُ عبر ألف مدينة، احترمني بعض الناس وقدمـوا لي طعاماً، وآخرون سخروا مني، وآخرون صمتوا، ومع ذلك شتموا، لكنْ ؛ كنتُ أحفظ لساني بين أسناني.

شاهدتُ مناظر غريبة، وسلكتُ دروباً مختلفــــــة. في بعـــض المرات، وأنا الذي كنتُ الزعيم وابن الزعيم، أكدح لأجل رجـــــال قساة كالمعدن وأحاديثهم ليست مهذبة، رجال ينـــتزعون الذهـــب بإرهاق العمال مقابل أجور زهيدة.

بعد كل هذا الوفاء لم أحصل على أية معلومات، فرجعـــــتُ عائداً إلى البحر كالفقمة المتجهة إلى المغدفة(*).

في مقاطعة أخرى في الشمال، سمعتُ في الميناء أخباراً غامضـــة عن هائم البحر الأصفر الشعر، ثم علمتُ ، أنه صياد فقمات؛ وهـــو موجود في عرض المحيط.

---

* – المغدفة: موضع تتوالد فيه الغدفان أو غيرها من الطيور. والغداف: هو طائر غـــراب القَيْظ

أبحرتُ على "سكونة" الفقمة مع "سيواتش" الكسول باتجاه الشمال حيث الصيد وافراً.

أمضينا أشهراً من الإرهاق والضجر، دارت بيننا أحاديث كثيرة، وسمعتُ الكثير عن الأعمال الوحشية للرجل الذي أبتغيه.

وصلنا حتى "بريبيلوفن"، واصطدنا على الشاطئ الرملي قطيعاً من الفقمات وضعناه على متن السكونة التي سالت بالوعاتها بالزيت والدم، حيث لم يتمكن أي رجل من الوقوف على ظهرها.

وبينما كنا على هذه الحال في عرض البحر، أُطلقت النار علينا من مدافع ضخمة، أزدنا سرعة الشراع حتى أصبحت المياه فوق أحمال المركب التي غسلت بشكل نظيف، ثم تهنا في الضباب.

في ذلك الوقت، بينما نحن نفر خائفين، كان هائم البحر ذو الشعر الأصفر قد دخل ميناء "البيربيلوس" واتجه مباشرة إلى المصنع، بينما تولّى قسم من رجاله خدمة الشركة، وأضاف النشاط المتجدد عشرة آلاف جلد أخضر من البحار المالحة.

هكذا، كانت الحالة. لكنْ ؛ أعتقد،من خلال الرحلات البحرية التي وصلت الشاطئ، وأبداً ينال شهرة كبيرة في ملتقى البحار الشمالية بسبب وحشيته وجسارته، ووصل مسعاه إلى ثلاثة

أقوام يقطنون هناك. وسمعتُ عن "يونكا" التي ترافق الكابتن المتيم بها، وقد تعلمتْ أساليب قومه -هم قالوا ذلك- وكان سعيداً.

لكنْ؛ أنا عرفتُ أفضل، عرفتُ أن قلبها يحن إلى شعبها قرب الساحل الرملي الأصفر "لاكاتان".

وهكذا، بعد وقت طويل، رجعتُ عائداً إلى الميناء قرب مدخل البحر، وهناك اكتشفتُ أنه قد أبحر عبر المحيط الكبير طلباً لصيد الفقمات إلى الشرق من الأرض الدافئة التي تمتد جنوباً من البحار الروسية. ثم -أنا الذي أصبحت بحاراً- أبحرتُ مع رجال من صنفه، وتبعتُهُ في صيد الفقمات.

ثمة سفن قليلة بعيدة عن يابسة تلك الأرض الجديدة، طاردنا الفقمات التي أسرعت شمالاً خلال الربيع. وعندما عبرت إناث الحيتان الحبالى الخط الروسي، دمدم رجالنا وخافوا. بسبب الضباب الكثيف، كل يوم، تضل القوارب بالرجال ولا يستطيعون عمل شيء. لذلك أدار الكابتن السفينة واتجه عائداً من الجهة التي أتينا منها.

لكنْ؛ أنا أعلم، أن هائم البحر لم يكن خائفاً، وراغباً في التشبث بملاحقة القطيع إلى الجزر الروسية، حيث ذهب رجال قلائل.

في ظلام الليل، عندما غلب النعاس على ظهر المركب، أخذتُ القارب، وذهبتُ إلى الأرض الواسعة، حيث الدفء، ثم قمتُ برحلة

نحو الجنوب لمقابلة الرجال لدى "يادوباي"، الذي كان همجياً وشجاعاً. وفتيات "يوشي دارا" كُنَّ صغيرات وجميلات، لامعات كالفولاذ، لكنْ؛ لم أستطع التوقف وأنا أعرف أن "يونكا" مطروحة على أرض غرفة قرب البيوت القذرة في الشمال.

رجال "يادوباي"، الذين لا ينتمون إلى وطن، اجتمعوا من أطراف الأرض، وأبحروا تحت راية يابانية. ذهبتُ برفقتهم إلى جزيرة النحاس، وهناك أصبحت أكوامنا الملحية. عالية مع الجلود. وفي صمت البحر لم نشاهد أحداً، وكنا مستعدين للإبحار بعيداً.

آنذاك، في يوم ما، انقشع الضباب مع تقدم الرياح الثقيلة شيئاً فشيئاً، وثمة ضغط فوق السكونة طوق أثرها الذي خلفته في المياه دخان مدافع رجل الحرب الروسي الضخمة. تفادينا بعيداً في اتجاه الريح، وضغط السكونة ما زال محكم، ثم اندفعت بسرعة تبلغ ثلاثة أقدام. في مؤخرة السفينة كان الرجل ذو الشعر الذي يشبه عرف أسد البحر، يضغط الأسيجة إلى الأسفل مع الشراع ويسخر من الحياة متباهياً بقوته، و"يونكا" كانت هناك، رأيتها للحظات، لكنه دفعها إلى الأسفل عندما بدأت نيران طلقات المدافع تتكلم فوق البحر.

كما قلتُ، بثلاثة أقدام إلى اثنين، حتى شاهدنا الدفة الخضراء تقع مع كل وثبة، ثم انتقلتُ إلى الدولاب، ولعنتُ بقفاي إطلاق النار الروسي. ضربوا بعنف صواري مركبنا، حتى سبحنا في الريح

كالنوارس الجريحة، بينما هو تابع إبحاره- هو ويونكا- نحو نهاية خط الأفق. وقُبِضَ علينا.

ـــ ماذا استطعنا؟ الجلود الطرية تكلمت مع ذاتها.

اقتادونا إلى ميناء روسي، وفيما بعد إلى مقاطعـــــة، هنـــاك، أجبرونا على العمل في مناجم الملح. بعضنــــــا مـــات، ثم، ثم بقـــي بعضنا حياً .

دفع "ناس" الغطاء عن كتفيه بقوة - وهو يبدي نكد المـزاج- ولوى الجسد الموسوم بعلامات واضحة من أثر لسع السياط. كشـفه "ستانلي" و لم يكن مسروراً بالنظر إليه. هناك، كنا مرهقين، في بعض الأحيان يذهب الرجال جنوباً، لكنْ؛ دائماً يعودون.

في ذلك الوقت - نحن الذيـــــن جئنـــا مـــن "يادوبـــاي"- نهضنا في الليل، انتزعنا البنـــــادق مـــن الحـــراس، ثم ذهبنـــا نحـــو الشـــمال.

كانت الأرض مترامية الأطراف، سهول واسعة تمتـــد شـــرقاً مشبعة بالمياه، ثم جاء البرد مع كثير من الثلج على الأرض، والطريـــق لم يعرفه أحد. سرنا شهورا مرهقين خلال الغابات المتصلة - أنـــا لا أتذكر- وغالباً كدنا نستسلم للموت جوعاً. لكنْ؛ في النهاية وصلنا البحـــر البارد ، وذهب ثلاثة رجال يستطلعون. بقيت أنا والكابتن الذي أبحر مـــن "يداو" وفي ظنه أنه يعرف الامتداد الواسع للأرض.

وصلنا إلى مكان تواجد فيه خمسة أشخاص غرباء من الذين يقطنون في تلك المقاطعة، ومعهم كلاب وجلود، ونحن ليس لدينا شيء. قاتلناهم على الثلج حتى ماتوا، ومات الكابتن أيضاً، واستحوذتُ على الكلاب والجلود.

عندئذ، عبرتُ فوق الجليد الذي كان محطماً، وذات مرة انجرفتُ مع عاصفة وضعتني على الشاطئ، ثم تابعتُ حتى "كولوفين باي"، "باستيليك".

آنذاك، جنوباً، جنوباً، نحو أرض الشمس الدافئة.

في البدء تجولتُ هناك لفترة طويلة مع أولئك الذين يخاطرون بملاحقة الفقمات،مقابل ربح قليل في البحر الذي لم يكن خصباً .

ثمّ مضت الأيام مسرعة، لم يستطع الربابين أو الرجال أن يرشدوني إلى المكان الذي أبتغيه. لذلك رجعتُ عائداً من المحيط الذي لا يرتاح أبداً، وتجولتُ في الأراضي الواسعة، حيث المنازل والأشجار والجبال منتصبة شامخة في مكان واحد لا تتحرك.

قمتُ برحلات بعيدة جداً، وفجأة شعرتُ أن "يونكا" يجب أن تعرف هذه الأشياء، وذلك يوماً ما، متى يكون اللقاء – لقائي بها– أنت تفهم! عندما يكون اللقاء.

وهكذا، انجرفتُ مثل ذلك السمك الصغير الذي يرفع الفقمة إلى الهواء ولا يستطيع الهروب. لكنَّ عينيّ وأذنيّ يقظتان دائماً،

وذهبت وسط الرجال الذين سافروا كثيراً، ربما لدى رؤيتي لهم، أعثر على ضالّتي.

ذات يوم، جاء رجل مـــن الجبـــال وبحوزتـــه قطـــع مـــن أحجار ذهبية بحجم حبة البازلاء، وكل قطعة تحوي ذهبـــاً، هـــذا الرجل كان قد سمع والتقى بهم وعرفهم، وقـــال: كـــانوا أغنيـــاء، وعاش معهم في المكان الذي يستخرجون الذهـــب منـــه. ذلـــك المكان في بلد قفر بعيد جداً، لكـــنْ؛ في نهايـــة الأمـــر ذهبـــتُ إلى المخيم متوارياً بين الجبـــال.

هناك، يعمل الرجال بمنأى عن أشعة الشمس ليـــلاً نهـــاراً. وآنذاك لم تحن الفرصة المناسبة. أصغيتُ إلى أحاديث الناس. كـــان يقال؛ لقد ذهب بعيداً -هما ذهبا- إلى إنكلترا، من أجـــل إحضـــار رجال وأموال بهدف تأسيس شركات.

شاهدتُ المترل الذي يقيمان فيه، يشبه القصر كثيراً، لم يشاهد أحد مثله في البلدة القديمة.

في وقت ما من الليل، تســـللتُ مـــن خـــلال النـــافذة إلى داخل المترل، ربما أشاهد أســـلوب الحيـــاة الـــذي يعاملـــها بـــه. تجولتُ من غرفة إلى أخـــرى، ثم إلى ردهـــة كبـــيرة، ظننـــتُ أن ملكاً وملكة يقطنان فيه. كل المترل بـــدا جميـــلاً جـــداً. الجميـــع يقول إنه يعاملها كالملكة، تساؤلات كثيرة حـــول نســـل المـــرأة، كان يجري في عروقها دم آخـــر.

كانت "يونكا" مختلفة عن نساء "آكاتان"، ولا أحد عرف مَنْ كانت. نعم، كانت هي الملكة، لكنْ؛ كنتُ أنا الزعيم، وابن الزعيم، ودفعتُ من أجلها ثمناً لا يعد ولا يحصى من الجلود وقارب وعقود. لكنْ؛ ما أهمية هذه الكلمات الكثيرة؟

لقد أصبحتُ رجلاً ملاحاً، وعرفتُ طرق السفن في البحار، أبحرتُ إلى إنكلترا، وإلى بلدان أخرى. بعض الأحيان أعرف أخبارهما من خلال أحاديث الناس، وأحياناً، أقرأ عنهما في الصحف، لم أتمكن مرة أبداً أن أكون بقربهما، لأنهما يملكان أموالاً كثيرة، ويرتحلان بسرعة، بينما أنا رجل فقير. ويوماً ما حلت بهما مشكلة، وانسلت الثروة منهما مثل لفافة تبغ. كتبت الصحف عنهما طويلاً. لكنْ؛ بعد ذلك لا شيء يقال، ثم علمتُ أنهما رجعا عائدين حيث يستطيعان الحصول على الذهب.

تجولت من مخيم إلى آخر، حتى الشمال، إلى مقاطعة "كويتني". هناك سمعت أنهما جاءا، ثم ذهبا، البعض قال؛ هذا الطريق، والبعض ذاك الطريق، وذهبت في ذاك.

ارتحال دائم، من مكان إلى مكان، حتى لاح لي أنني ازددتُ انزعاجاً من اتساع الكون الكبير جداً.

في "كوينتي" سافرتُ في ممر صعب برفقة شخص من "نورث ويست". وذلك الشخص مصاب بمرض عضال عندما كانت المجاعة متفشية. وقد جاء إلى "اليوكون" عبر طريق غير معروف بين الجبال،

وعندما شعر أن نهايته حلت، أعطاني خريطة وسر المكان، وأقسم بربه عن وجود ذهب كثير.

كان الناس يندفعون أفواجاً نحو الشمال. وبما أنني رجل فقير أقنعتُ نفسي أن أعمل في قيادة كلاب المزالج. البقية أنت تعرفها.

التقيتُ بهما في "داوسون"، هي لم تعرفني، مَرَّ زمان طويل منذ أن كنتُ مراهقاً، وحياتها تبدو عظيمة، وهكذا لم يكن لديها الوقت لتتذكر الشخص الذي دفع من أجلها ثمناً لا يعد ولا يحصى. كما أقول؛ أنا أقرأ في حياتي الماضية، خلال كل ما شاهدته وقاسيته، وأتذكر البرد والجوع في الغابات المتصلة قرب البحر الروسي. وكما أنت تعلم، قدتهما نحو الشرق، حيث ذهب الكثير وعاد القليل. قدتهما إلى حيث مكان العظام ولعنات الناس في موقع الذهب الذي ربما لن يحصلا عليه.

كان الطريق طويلاً، ولا عودة في الممر، كلابنا كثيرة وتأكل كثيراً، ومزالجنا لم تستطع تحمل الثقل، حتى تفجر الينبوع، ويجب علينا أن نعود قبل أن يجري النهر.

خبأنا المؤونة هنا، وهناك، كي نخفض الأحمال عن المزالج، وحتى لا تتاح فرصة للمجاعة أيضاً في الرحلة.

كان ثمة ثلاثة رجال، وعلى مقربة منهم أنشأنا مخبأ، كما فعلنا في "مايو" أيضاً، حيث كان صيد المخيم دزينة من "الرنة" التي تتجه نحو الجنوب.

بعد كل ذلك، أثناء المتابعة نحو الشرق، لم نشاهد رجالاً،شاهدنا النهر النائم فقط، والغابة الراسخة، وصمت الشمال الأبيض.

كما قلتُ؛ كان الطريق طويلاً، ولا عودة في الممر. في بعض الأحيان، في كدح يوم لا نجتاز أكثر من ثمانية أميال، أو عشرة، وفي الليل ننام كالموتى.

قطعاً، هما حلما مرة، أنني "ناس" الرجل الزعيم "لآكاتان"، مصحح الأخطاء.

في ذلك الوقت، أنشأنا مخبأ صغيراً، وأثناء الليل لا يمكن العودة في الممر الذي خربناه في طريقنا من أجل لصوص حيوانات الشره(*).

مرة أخرى، ثمة أماكن يكون النهر فيها غزيراً والمياه عاصفة، والجليد يتشكل فوقه بحيث يذوب من الأسفل. في بقعة كهذه، وأنا أقود المزلجة والكلاب، سقطت المزلجة فوق الجليد الذائب. كان حظهما سيئاً. وقد نفق الكلب الأخير في سير المزلجة.

---

* – حيوان ثدي لاحم، يتواجد في شمال أمريكا.

سخر من ذلك بسبب قوته في تحمل الحياة. وقال؛ عندما نريد العودة، نتناول طعامنا من مخبأ إلى مخبأ بلا كلاب أو مزالج.

من أجل الوصول إلى المكان - حسب إرشـــادات الخريطـــة الصحيحة- في قلب الجبل الضخم، اجتزنا خطوات جليدية مقـــابل جدار الحد الفاصل.

صار يبحث عن نطاق الوادي، لكـــــنْ؛ لا وجـــود لـــواد، امتد الثلج بعيداً، انبسط وكأنه سهل مليء بمواسم الحصـــاد، هنـــا، وهناك، تشمخ الجبال الضخمة بقممها البيضاء ما بين النجوم.

وفي منتصف الطريق في ذلك السهل الغريب الذي يبدو لنا أنه أرض الوادي، يتساقط الثلج بعيـــــداً، وبقـــوة إلى الأســـفل نحـــو قلب العالم.

لم نكن نبدو رجال بحر، وصارت رؤوسنا تتمايل من المشهد، ثم توقفنا بسبب الدوار الذي أصابنا، ــ علّنا ــ نشـــاهد الطريـــق الصحيح الذي نسير عليه.

الجدار متهدم من ناحية واحـــدة، ناحيـــة واحـــدة فقـــط، ويشبه ميلان ظهر المركـــب في اهتيـــاج الشـــراع الثـــاني علـــى الصاري، تقريباً.

لم أعرف لماذا بدا هذا الشيء هكذا، لكنْ؛ كـــان هكـــذا، بوابة جهنم، وقال: دعنا نترل، ثم نزلنا. في الأسفل، ثمـــة كـــوخ،

كوخ أقيم من قبل شخص ما، أجزاء من جذوع الأشجار دفعها من الأعلى. كان كوخاً قديماً جداً، هياكل عظمية لرجال ماتوا في أوقات مختلفة، وقد قرأنا على أجزاء لحاء شجر البتولا، آخر كلماتهم ولعناتهم.

أحدهم، قضى بداء الأسقربوط ، وآخر، أُخذت منه بندقيته وطعامه ومات بعيداً، الثالث، يبدو أنه ضُربَ بمطرقة خشبية من قبل أبيض الوجه المنقط بالرمادي، والرابع، كان يصطاد، ثم مات جوعاً وهكذا مضوا. بدا عليهم تشبثهم بالذهب، لكنهم ماتوا! وبقي اصفرار الكوخ كالحلم، والذهب عديم القيمة.

هذا الرجل الذي كنتُ أقوده لهذا المكان، أعصابه قوية، ورأسه نظيف. وقال ليس لدينا طعام، نستطيع النظر إلى الذهب فقط. ثم لاحظنا من أين جُلبَ، وكم كان كثيراً، وعندئذ رغبنا بالمتابعة بسرعة قبل أن يخطف بريقه أنظارنا، ويسرق حكمتنا. وربما بهذه الطريقة نعود مع كثير من الطعام.

نظرنا إلى العرق المعدني الضخم الذي قطع الجدار وكأنه حقيقة عرق معدني، ثم شرعنا بقياسه من الأعلى إلى الأسفل. استعملنا الأوتاد للتنقيب، ثم قطعنا أجزاء من لحاء الأشجار نرسم بها الإشارات في تحديد واختيار الجهة التي إلى يميننا. ارتجفت رُكبنا من شدة الجوع، شعرنا بغثيان ، وأحدثت مِعدَنا أصواتاً خفيفة ، وفي النهاية تسلقنا الجدار، ثم التفتنا خلفاً إلى مكاننا السابق.

جذبنا "يونكا" بيننا، وكثيراً ما أخفقنا، لكنْ؛ في النهاية وصلنا إلى المخبأ. وعجباً! لا توجد " دويدات"- كان عملاً جيداً، وهو ظنّ أن حيوانات الشره التهمتها، ثم لعنهم وألهم في وقت واحد. لكنْ؛ كانت "يونكا" شجاعة، ابتسمت وأمسكت بيده، وانحرفتُ أنا بعيداً، وربما، أمسكتُ نفسي عند ذلك.

قالت: سوف نستجمع قوانا من أحذيتنا، ثم نرتاح قرب النار حتى الصباح.

قطعنا الطرف العلوي للموكازين تقشيراً، ثم طهوناه في الماء المغلي كي نتمكن من مضغه وابتلاعه. في الصباح، يجب أن نجد صيداً، لن نتمكن من مسير خمسة أيام حتى نبلغ المخبأ الثلني.

قال: يجب أن نذهب ونصطاد. أجبته موافقاً. وطلب من "يونكا" البقاء بجانب النار كي تظل محافظة على قوتها. ثم ذهبنا، هو يبحث عن حيوان الموظ، وأنا نحو المخبأ الذي كنتُ بدلته، وكنتُ قد أكلت قليلاً، و لم يلاحظا حيوية لدي.

في الليل سقط مرات عديدة أثناء العودة إلى حيث تنتظر "يونكا". وكذلك أنا، عانيتُ ضعفاً عظيماً، أتعثر بحذائي الجليدي، وكأن كل خطوة تكون خاتمتي. ثم استجمعنا القوة من موكازينا. تعذب كثيراً، وتجنب الصراخ إكراماً لـ "يونكا".

في اليوم الثاني، تبعته، وكثيراً كان يستلقي طلباً للراحة، وفي الليل كان تقريباً سيذهب. لكنْ ؛ في الصباح استرسل في السباب بضعف، ثم ذهب ثانية. كان كرجل ثمل، لكنه قوي، روحه روح المارد، لذلك بقي جسده خلال كل اليوم الشاق نشيطاً. اصطاد ترمجين(*)، لكن لم يأكلهما. لم يحتج النار، كان تفكيره مركزاً على "يونكا"، ثم دار عائداً إليها. لم يسر طويلاً، زحف على يديه وركبتيه فوق الثلج، تقدمتُ منه، قرأتُ الموت في عينيه. دفع بندقيته جانباً، أمسك الطيرين في فمه مثل الكلب. أسرعتُ إليه، وقفتُ إلى يمينه، ثم نظرتُ إليه، وخلال لحظات ارتاح، ثم استغرب أنني ما زلت قوياً. استطعتُ رؤية ذلك، لكنه لم يتكلم، وعندما تحركت شفتاه، تحركتا دون صوت.

كما أقول، هو رجلٌ ضخم، وقد رقّ قلبي من أجله، لكنْ؛ تذكرت ما مضى من حياتي، تذكرتُ البردَ والجوع في الغابة اللامتناهية قرب البحر الروسي، أيضاً، "يونكا" كانت ملكي، وقد دفعتُ من أجلها ثروة لا تُعد ولا تحصى من الجلود وقارب وعقود.

على هذه الحال، صرنا ضمن الغابة البيضاء، مع الصمت الثقيل المخيم كسديم البحر الكئيب. كانت أشباح الماضي في الهواء، في كل مكان حولنا، ثم شاهدتُ صورة شاطئ "آكاتان" الأصفر، القوارب الجلدية تعود إلى المنازل من صيد السمك، صورة المنازل

---

* – الترمجان: طائر من مرتبة الدجاج في الأصقاع الشمالية.

على حافة الغابة والرجال الذين نصبوا أنفسهم زعماء هناك، المشرّعون الذينُ ولدتُ من نسلهم، ومن نسلهم أعُجبت بـ "يونكا". نعم "ياش- نوش" سار معي، الرمل الرطب في شعره، رمحه محطم أثناء سقوطه على الرمال بلا حراك، ثم عرفتُ وقت اللقاء، ورأيتُ في عيني "يونكا" الوعد.

وكما أقول، وهكذا صرنا ضمن الغابة، ورائحة الدخان تدخل ثقوب أنفينا.

انحنيتُ فوقه، انتزعتُ بعنف "الترجيان" من بين أسنانه. انقلب على جنبه ، ثم سكن. تعاظمت الدهشة في عينيه، انزلقت يده ببطء نحو الأسفل إلى الخنجر الذي يحمله، لكنْ؛ أخذته منه، وارتسمت ابتسامة على وجهه، وبدا أنه لم يفهم. عندئذ، بدأتُ أشرب من الزجاجة السوداء، وأنشئ كومة من البضائع على الثلج، وأعيش ثانية الأمور التي حدثت ليلة زفافي.

لم أتكلم، لكنه أدرك ذلك، ولاحظت أنه غير خائف ،سخرية بدت على شفتيه، غضب بارد، ثم استجمع قوته مرة ثانية. لم تكن "يونكا" بعيدة، سحب نفسه على الثلج ببطء شديد، ثم استلقى هكذا. قلبته على ظهره وحدّقت في عينيه. أحياناً ينظر إليّ، وأحياناً الموت. وعندما أطلقته، تابع زحفه بجهد. وصلنا إلى قرب النار، وخلال لحظة أصبحت "يونكا" بجانبه. تحركت شفتاه دون صوت. عندئذ، أشار إليّ، تلك "يونكا"، ربما تفهم.

بعد ذلك، استلقى ساكناً على الثلج، حتى هذا الوقت يكـون متمدداً على الثلج. لم أتفوه بكلمة حتى طهوت الـترمجين. ثم بعـد ذلك، تكلمتُ معها وبلهجتها الخاصة، اللهجة التي لم تسمعها منـذ سنوات عديدة. عدّلت نفسها، هكذا، توسعت عيناها. تعجبـاً، ثم سألتني من أكون، وأين تعلمت هذه اللهجة.

أجبتها: أنا "ناس".

ــ قالت: أنت؟ أنت؟ ثم لاذت بـالصمت، ربمـا كـانت تتفحصني.

أجبتها: نعم، أنا "ناس"، زعيم "آكاتـان"، أخـر الذريـه، مثلك تماماً.

ضحكت "يونكا"، من خلال كل الأمور، كنت أبدو كـأن جميع الأعمال كانت أعمالي، أبداً سمعـت مثـل هـذا الضحـك مرة أخرى.

سرت قشعريرة في جسدي، جلسـتُ هنـاك في الصمـت الأبيض، وحيداً مع الموت ومع هذه المرأة التي ضحكت.

ظننتها مندهشة. قلتُ لها: تعالي، تناولي الطعام ودعينا نذهب، إن "آكاتان" بعيدة جداً. دست وجهها في عرفه الأصفر، ثم ضحكت حتى لاح لي أن الجنّة يجب أن تسقط حول أذاننا. كنتُ أظـن أنهـا ستُسَرُّ لرؤيتي. تتلهف للعودة إلى الماضي لتذكر أوقاتنا السابقة.

صرختُ: تعالي! وأخذهٓا من يدها بقــوةٍ. الطريــق طويــل ومظلم. دعينا نسرع!

سألت إلى أين؟ وجلست منتصبة، وكفّــت عــن مرحــها الغريب.

أجبتُ: إلى "آكاتان"، وحدّقت في وجهها الذي بدأت ملامحه تتبدل. وارتسمت سخرية على الشفاه، ثم غضب بارد.

قالت: نعم، سوف نذهب سوياً، يدٌ بيد، إلى "آكاتان"، أنــت وأنا. سنعيش في كوخ قذر، نأكل الزيت والسمك، ونجلب بيــوض السمك - بيوض السمك احتراماً لكل أيام حياتنا- سوف ننســى العالم، ونعيش سعيدين، سعيدين جداً، حسن، تعال، دعنا نســرع، دعنا نعود إلى "آكاتان". ثم جالت يدها خــلال شــعره الأصفــر وابتسمت بشكل غريب؛ ولم يبد في عينيها وعد.

جلستُ صامتاً، دُهشِتُ من غرابة المرأة، رجعتُ بذكرياتي إلى تلك الليلة التي سحبها مني وهي تصرخ، ثم سحبها بعنف إلى شعره، شعره الذي تلعب به الآن، ولن تغادر.

عندئذ تذكرتُ الثمن والسنين الطويلة من الانتظار والعـذاب، ثم فهمتُ تكتمها، وسحبتها مثلما كان قد فعل. وفي نفس اللحظـة، كما في تلك الليلة، مباشرة، ارتدت نحو الخلف، قاومت كقطةٍ تدافع عن صغارها. تركتها عندما صارت النار بيننــا وبــين الرجــل، ثم جلستْ وأصغتْ لما رويته لها عن ذلك الممدد بيننا، وعما حــدث لي

في البحار الغريبة، عن كل ما عملته في الأرض الغريبة، عـــن بحثـــي الشاق، حتى الذي حدث ذلك اليوم بيني وبين الرجل، وعـــن أيـــام الشباب أيضاً. لاحظتُ الوعد ينمو في عينيها، مليئاً وكبيراً كـــبزوغ الفجر. ثم لاحظتُ وجود شفقة، حنان المرأة، الحب، قلب "يونكـــا" وروحها.

تذكرتُ مرة أخرى، عندما كنتُ مراهقاً صغيراً، تذكـــرتُ نظراتها، عندما كانت تجري على الشاطئ الأصغـــر، تضحـــك، في طريقها إلى منزل والدها.

الإرهاق الصارم، انتهى، والجوع والانتظار الممل أيضاً، إنـــه وقت اللقاء، أحسستُ بالحاجة إلى صدرها، وصدرها أمامي، يجـــب أن يتوسد رأسي وأنسى.

فتحت ذراعيها، تقدمتُ إليها. عندئذ، فجأة، ارتسم الكره في عينيها، كانت يدها على وركي، ثم مرة، مرتين، غرزت الخنجر.

دفعتني بقوة على الثلج وقالت باستهزاء: كلـــب! خـــنزير! حطمت الصمت بالضحك، ثم عادت إلى فتورها.

وكما أقول؛ غرزت الخنجر مرتين، لكنها كـــانت ضعيفـــة وجائعة، لذلك كانت طعنتاها ضعيفتين. إضافة لذلك، كنتُ أفكـــر بالبقاء في ذلك المكان، وأغمض عينيّ في نوم أخير طويل مع أولئـــك الذين كانت حياتهم تتصالب مع حياتي، وأقود قدميّ إلى ممر مجهول. لكنْ؛ عليّ دين، ضريبة لن تدعني أرتاح. والطريق كان طويلاً. الـــبرد

قارسٌ، والطعام قليل، ومخبأي قد سُرِقَ، والرجال البيض الثلاثة، تمددوا هزيلين، ماتوا في كوخهم عندما مررت بهم.

بعد كل ذلك، لا أتذكر، حتى وصلتُ إلى هنا، ووجدتُ الطعام والنار، نار دافئة.

عندما أنهى حديثه، جثم عن كثب، وبحرص فوق الموقد لوهلة وجيزة، والمصباح الثلجي نصف الذائب يصور تراجيدياً فوق الجدار.

هتف "ستانلي" وقد توطن الخيال عميقاً فيه: لكن "يونكا".

ـ "يونكا"؟ لن تأكل من الترجمين. استلقت بجانبه وذراعاها حول عنقه، ووجهها على شعره الأصفر. لقد سحبتُ النار المجمرة، لن تشعر بالتجمد، لكنها زحفت إلى الجانب الآخر. أشعلت النار هناك، نار جيدة قليلاً، لهذا السبب، هي لن تأكل. وظلا هكذا ممددين هناك على الثلج.

سأل "كيدماليموت": وأنت؟.

ـ أنا، لا أعرف، لكن، "آكاتان" صغيرة، ولدي رغبة قليلة بالعودة والعيش في طرف العالم هناك سيكون تقدير صغير للحياة. أنا أستطيع الذهاب إلى "كونستانتين"، وهو سيضع الأصفاد في يديّ، ثم يوماً ما سيربطون أجزاء من الحبل، هكذا، ثم سأنام جيداً،بل و..... لا، أنا لا أعرف.

لكن "كيد"؛ احتج "ستانلي"، هذا يكون أمراً خطيراً!

أمر "كيد": صه، توجد أمور أعظم من معرفتنا، وراء نطـــاق عدالتنا. في هذا لا نستطيع قول الخطأ والصواب، ثم هذا، لن يكـون من حقنا إصدار الحكم.

تقدم "ناس" تدريجياً على مقربة من النار.

خيمّ صمتٌ عظيمٌ، ثم تراءت أمام عيني كل رجـــل صـــور عديدة تظهر وتختفي.

سخرية بوربورتيك

أصبحت "إل- سو" فتاةَ الإرسالية التبشيرية.

ذات يومٍ صيفي، خطف الموت والدها وهي ما تزال صغـــيرةً جداً. التقطتها الأخت "البرتا"، كالجمرة من الاشتعال، وكرسّـــتها لخدمة الرب في كنيسة الصليب المقدس.

"إل- سو" فتاة هندية ممتلئة الجسم، رشيقة، سريعة العــــدو، ذكية ذات خيال متقد وشخصية قوية، لطيفة وشجاعة، شعور مفعم بحيوية الحياة. بزّت كل الفتيات الهجينات ونصف الهجينات. يســيل في عروقها دم والدها الذي كان زعيماً. احترمت العلاقات المتبادلـة. تفوقت في علم الحساب وفي أمور أخرى، أيضاً. تعلمت قراءةَ وكتابةَ اللغة الإنكليزية، في وقتٍ، لم تتمكن أيةُ فتاة في الإرسالية التعلم أبداً. ترأست الفتيات في الإنشاد وأُفعم إحساسها بالعدالة .رغبت أن تنظم

أدباً أو موسيقا، حفل حماسها إلى الإبداع , مع أنها كانت ابنة الزعيم \ كلاكي ـــ ناه \ , لكنها ترعرعت في الكنيسة الـــتي لا تحـــوي فنانات، فقط، الأخوات ذوات النفوس الطاهرة اللاتي كُن ّيتحلَّيْـــن بالطهارة والاستقامة ورفاهية الروح في عالم الخلود الـــذي يكمـــن خلف السماوات. مرت السنون، كان عمرها ثمان سنوات عندمـــا التحقت بخدمة الكنيسة، وعندما بلغت سنَّ السادسة عشر، تبـــادلت الأخوات الرسائل مع رؤسائهن حـــول إرســـال "إل- ســـو" إلى الولايات المتحدة كي تتابع تعليمها وثقافتها.

آنذاك، جاء رجل من قبيلتها إلى مقر الإرســـالية، وتحـــادث معها. ارتعبت قليلاً. كان قذراً، يشبه كائناً بدائياً قبيحاً، على رأســـه كتلة شعر كثيفة، بدا أنه لم يُمشّطها منذ زمن بعيد.

رفض الجلوس ونظر إليها باستهجان، وقال بإيجـــاز: مـــات أخوك.

لم يبد أن صدمة أصابتها. تذكرت أخاها الصغير.

قال الرسول: إن أباك رجل عجوز ووحيد، مترلـــه واســـع وفارغ، يرغب رؤيتك وسماع صوتك.

تذكرّته، "كلاكي- ناه"، زعيم القرية،وصديـــق المبشّـــرين والتجار، يركب عربته مُباعداً رجليه بشعور نبل صريح.

أجابت "إل- سو": قل له، سوف أذهب إليه.

عادت الجمرة الملتقطة من التوهج إلى الاشتعال، وأصيبت الأخوات باليأس المفرط.ضاعت كل الالتماسات دون جدوى. رفضٌ وبكاءٌ، حتى أن الأخت "البرتا" كشفت لها عن خطة إرسالها إلى الولايات المتحدة.

حدقت "إل- سو" بعينين واسعتين الى المستقبل الذهبي الذي انفتح أمامها، وهزّت رأسها، كان في عينيها إصرارٌ على المستقل الآخر.

بدا تعرج نهر اليوكون رائعاً نحو محطة "تانانا"، كنيسة القديس جورج على جانبٍ، والمحطة التجارية على الجانب الآخر، وفي منتصف الطريق إلى القرية الهندية، يقطن رجل عجوز مع بعض الخدم في منزل خشبي كبير . كل قاطني ضفتي اليوكون،ولمسافة ألفي ميل، عرفوا المنزل الخشبي الكبير،والرجل العجوز، والخدم الذين يعتنون به.

الأخوات، عرفن المنزلَ جيداً،كان دائم المرح الصاخب والنكات، والولائم وطيب الطعام.

غادرت "إل- سو" كنيسة الصليب المقدس، مخلِفةً نواحاً وحزناً.

عندما وصلت، أضفت على المنزل الخشبي الكبير ترتيباً أنيقاً. احتجّ "كلاكي- ناه" على سلوك ابنته الرائع، لكنه في النهاية،كان يحلم بهمجية العظمة.

انطلق واقترض مبلغ ألف دولار من العجـــوز "بوربوتيـــك"، حيث كان لا يوجد مثله في اليوكون هندي ثـــري، ورفـــع قيمـــة الفاتورة الثقيلة في المحطة التجارية أيضاً.

بثت "إل- سو"روح النشاط في المترل،و منحته روعة جديدة. بينما حافظ "كلاكي- ناه" على التقاليد القديمة كحســـن الضيافـــة والمرح الصاخب.

كل هذا غير عادي لهنود اليوكون، لكن "كلاكي- ناه" كـان هندياً مختلفاً. لم يحب من تلقاء نفسه إظهار حسن الضيافة المبالغ فيه، لكنْ؛ من يكن الزعيم، يجب أن يكسب أموالاً كثيرة، وهو قـــادر على ذلك. في بداية عمله في التجارة، تقاسم الأرباح مـــع شـــركاء بيض. فيما بعد، توصل مع "بوربوتيك" إلى اكتشاف مفاجئ للذهب في نهر "كويوكوك".

كان "كلاكي- ناه" ذا نزعة ارستقراطية، و"بوربوتيك" تاجراً برجوازياً، باعه حصته من منجم الذهب رغبـــةً في اكتنـــاز وجمـــع الأموال. أما "كلاكي- ناه" فمضى ينفق بإسراف.

كان "بوربوتيك" معروفاً أنه أثرى هندي في آلاسكا، مرابيـــاً. بينما كان "كلاكي- ناه" في زمن غير زمنه —إفـــلاس قروســـطي- مقاتل ويدعو،إلى الولائم .سعيد مع النصر والغناء.

تأقلمت "إل- سو" مع المترل الكبير، كما كانت قد تأقلمت مع كنيسة الصليب المقدس. لم تحاول إصلاح والدها وتوجيه خطواته

نحو الرب. أنبّه -هذا صحيح- عندما شرب كثيراً، لكن ذلك من أجل صحته وتصويب خطواته على الأرض الصماء.

لم يُثَبَّتْ حبل مزلاج الباب الخشبي الكبير أبداً، كان دائماً نحو الخارج مع كل وافدٍ ومغادر. وتهتز عوارض السطح الخشبي المائل لغرفة المعيشة الكبيرة مع أصوات هدير شراب "الواسيل" والأغاني. جلس حول المائدة رجال من كل أنحاء العالم، وزعماء قبائل مختلفة، رجال إنكليز، وساكنو المستعمرات، تجارٌ يانكيون هزيلون، موظفو الشركات الضخمة البدينين، رعاة بقر من المراعي الغربية، رجال بحارة، صيادون، مزالج ثلجية جلبت أعداداً لا حصر لها من الجنسيات.

نفثت "إل- سو" في الهواء الكوسموبوليتاني(*) وتمكنت من التحادث باللغة الإنكليزية، إضافة إلى لهجتها المحلية. أنشدت أغان إنكليزية وشعبية. وأدركت ضعف التقاليد، وزوال الطقوس الهندية. كانت تعرف كيف ترتدي الثوب القبلي لابنة الزعيم عند الضرورة.

لكنْ؛ كانت ترتدي ثياباً كالمرأة البيضاء، معظم الوقت، تلك الثياب التي خاطتها في الكنيسة وحملتها معها لدى مغادرتها إلى منزل والدها. وفي طريق العودة أحسّت أنها غير عادية مثل والدها، وهذه الحالة نشأت من تفكيرها أنها وحيدة مثله. كانت المرأة الهندية الوحيدة التي تتساوى اجتماعياً مع نساء بيض مختلفات. وهي الهندية

* - الكوسموبوليتاني: الجو المتحرر من الأحقاد القومية أو المحلية.

الوحيدة في محطة تانانا التي عَرض عليها الرجـــال البيـــض الـــزواج باحترام. والتي لم يقدم رجل أبيض على إهانتها أبداً.

كانت "إل- سو" جميلةً، ليست كجمال النساء البيـــض، ولا كجمال النساء الهنديات. بدا تألقها في أنها لم تعتمد على المســتقبل، ذاك كان جمالها. لم يكن هذا إلى حد ما سوى مجرد تفكير،فقد كانت مثال المرأة الهندية الكلاسيكية.

اللون البرونزي الجميل والشعر الأسود كانا خاصتها، العينــان السوداوان، متألقتان وجسورتان كوميض السيف، وأنف كخاصـــة نسر دقيق برقه، أنف يهتز بإباء، عظمتا الوجنتين ليستا عريضتـــين، شفتًان رقيقتان، وليستا رقيقتين أيضاً. لكنْ؛ خلال تدفق كل الشعور الملتهب،كان حماسها شيء ما غير قابل للتحليل، الــــروح المحركـــة لها،أمـــدت الـــدفء اللطيـــف والتوهـــج في عينيـــها،وأزهـــرت الوجنتين،ووسعَتْ ثقبي الأنف،وفتلتْ الشفة، أو، عندما تكون الشـــفة في حالة سكون كان الارتجاف يستمر مع طيفها.

وكانت ذا فطنة ودهاء، قلما تحتدّ بالأذى، بـــل تُســـرع إلى إظهار قدرة العفو. ينشط الضحك على محياها كوميض لامع وينتشر على كل من حولها، وترتفع استجابات الضحك.

لم تكن مركز الأشياء، أيضاً، ولم ترغب أن تكون.

كل ما يتضمنه المترل الخشبي الكبير، له دلالات. إنه مـــترل والدها، ومن خلاله، حرك شخصيته البطولية - صاحب المترل، سيد المرح الصاخب،واضع القانون.

هذه حقيقة. عندما بدأت قوته تضعف، تحملت "إل- سو" المسؤولية عنه. لكنه من حيث المظهر ظلّ مسيطراً، يقضي معظم أوقاته متكاسلاً حول المائدة، بقايا شخص عربيد، ومع ذلك يبدو هو الآمر للوليمة.

ضمن حدود المترل، تحركت شخصية "بوربورتيك"، يهزّ رأسه متشائماً، يستنكر ببرود ، ويدفع كل شيء مقابل امتلاك المترل. في الحقيقة هو لم يدفع. لقد ضاعف الفائدة بأساليب غريبة، وعاماً بعد عام، امتُصت ملكية "كلاكي- ناه".

ذات مرة؛ أقدم "بوربورتيك" على توبيخ "إل- سو" حول أسلوب الحياة المسرفة في المترل - كان ذلك عندما أوشك على استتراف آخر ثروة "كلاكي- ناه"- لكنه أبداً لن يجازف مرة أخرى بتوبيخ مماثل.

"إل- سو"، شابهت والدها، أرستقراطية، تزدري المال بشعور متساوٍ للشرف.

"بوربوريتك" مصممٌ بتذمرٍ على الإسراع بدفع الديون عندما يشاهد أن المال يتدفق بزبدٍ ذهبي بعيداً. توقفت "إل- سو" كثيراً عند أمر هام، والدها سيموت كما عاش، يجب أن لا يسقط من الشموخ إلى الحضيض، دون أن يقلل من العربدات والعادات المسرفة.

في الماضي، أثناء حدوث المجاعة، توافد الهنود الحمر إلى المترل الكبير، وغادروا قانعين.

آنــذاك، لم يكــن المــال متوفــراً. كــان "كلاكـــي ـــ ناه" يستدين من "بوربورتيــــك" وظــلّ الهنــود الحمــر يــأتون ويغادرون قانعين.

ربما، "إل– سو" كانت تردد حقاً، خلف الأرســـتقراطية في زمان ومكان آخرين، الطوفان. الطوفان بالنسبة إليها، كان العجــوز "بوربورتيك".

مع كل سلفة مالية، كانت نظرات "بوربورتيــــك" تحــاول الاستئثار بحبها، لكنْ؛ لم تكن تكترث به، و لم تعرْ أيضاً نظرها نحــو أي من الرجال البيض الذين رغبوا الزواج منها بالطقوس الكنســـية المعروفة.

كل ذلك من أجل الشاب "آكون"، الشاب القــوي الــذي يعمل في محطة تانانا. إنه من قبيلتها وقريتها ومن دمــــها. كــان في نظرها شاباً قوياً وجميلاً، صياداً ماهراً.

شاب فقير جداً، ارتحل وتجول كثيراً وبعيداً، وصل إلى جميــع القفار والأماكن غير المعروفة، ارتحل إلى "ســتيكا" وإلى الولايــات المتحدة، وعبرَ أوروبا إلى "هيدسون باي"، ثم عاد مرة أخرى، وأبحــو على متن سفينة كصياد بحري، ثم إلى سيبيريا واليابان.

عندما عاد من اكتشاف الذهب في /الكلونديك/، جاء برغبته إلى المترل الخشبي الكبير، كي يروي للعجوز "كلاكي– ناه" عن كل

ما شاهده في رحلاته. وقد سبق أن شاهد "إل- سو" قبل ثلاثِ سنوات في الإرسالية التبشيرية. آنذاك، لم يتجول كثيراً. رفض العمل كمدير دفة في مركب تجاري مقابل أجر اثني عشر دولاراً يومياً.

كان ميالاً للصيد، يصطاد السمك، لكنه لم يبتعد عن محطة تانانا، ويتردد على المترل الكبير في معظم الأحيان، ولمدة طويلة، قارنته "إل- سو" مع رجالٍ كثيرين، فكان الأفضل، أنشد لها الأغاني،وانتشرت قصة حبهما في أرجاء محطة تانانا.

هذا ما أزعج "بوربورتيك" الذي دفع أموالاً ضخمة كي يحصل على المترل الخشبي الكبير.

حلّت ضربية الموت ل "كلاكي- ناه".

أخذ مكانه في المأدبة بحنجرة ميتة، لم يستطع كتم الصوت مع النبيذ. دارت الأغاني والنكات والضحكات، وروى "آكون" قصةً رددت الروافد الخشبية صداها. على تلك المائدة، لا دموع، لا تنهدات، لكن ثمة "كلاكي- ناه" سوف يموت كما عاش، ولا أحد أدرك هذا أفضل من "إل- سو"

كان حفل السكر والعربدة يضم، كالسابق، ثلاثة رجال بحارة تأذوا من الصقيع عندما سلكت سفينتهم الطريق الطويل المتعرج، مواكبةً الريح، قادمةً من القطب الشمالي، وهم الوحيدون الناجون من حادثة شركة السفن الأربع والسبعين.

خلف "كلاكي- ناه" وقف أربعة رجال عُجز. عملوا على خدمته بعيون دامعة، وبأيد مصابة بشلل ارتجافي يملأون كأسه، أو، يضربونه على الظهر بين الكتفين، حين يسعل ويلهث.

كانت ليلة عاصفة، وكما مضت الساعات الطويلة بالضحك وهديره، كذلك نشط الموت أكثر، متواصلاً في حنجرته.

أرسل "كلاكي- ناه" من يدعو "بوربورتيك" الذي جاء من الخارج الصقيعي وألقى نظرة استنكار على المائدة المليئة باللحم والنبيذ. وبعد أن أزدرى الوجوه المتوردة، شاهد وجه "إل- سو"، فتألق النور في عينيه، وانتهت نظرة الاستنكار.

أجلسه "كلاكي- ناه" بجانبه، وَوُضعت أمامه كأس .

ملأ "كلاكي- ناه" له الكأس بحماس؛ اشرب!، هتف وتلبع، أليس هذا الشراب جيداً؟ أشار "بوربورتيك" برأسه موافقاً، وتلمّظ بشفتيه وسال دمع من عينيه.

ألديك في مترلك، شراب كهذا؟ سأله "كلاكي- ناه".

- أنا لا أنكر أن هذا الشراب جيد لعجوز مثلي، أجاب "بوربورتيك"، ثم تأنى بالكلام.

- لكنْ؛ هذا ثمنه باهظ، زآر "كلاكي- ناه"؛ أكمل الشراب.

جفلَ "بوربورتيك" من الضحك الممتد تحت الطاولة. تأججت عيناه بالحقد، وقال:

- أنا وأنت رفاق طفولة، وبنفس العمر، في حنجرتك الموت، وأنا سأبقى حياً وقوياً.

صدرت عن الضيوف دمدمة تنذر بالسوء. سعل "كلاكـــي- ناه" واختنق، ضربه الخدم بين كتفيه. بدأ يلهث، ثم أشار بيده يـهدئ دمدمة الوعيد وقال :

أنت ضننت بالنـــار في مـــترلك بســـبب ســـعر الخشـــب، حياتك شحيحة. كانت حياتك تشبه كوخاً والنار تشتعل خارجـــه، ولا توجد أغطية على الأرض - أشار إلى الخادم كي يملأ الكأس التي حملها عالياً- لكن أنا، عشت حياةً آمنةً، لم تعشها أنت أبداً

هذه حقيقة، أنت ستعيش طويلاً. لكن الليالي الأطول، هـــي الليالي الباردة عندما يرتجف الإنسان وينام مستيقظاً. وأنا، كـــانت لياليٍّ قصيرة، وكنت أنام دافئاً.

شربَ الكأس، وأخفقت يد الخادم المرتعشة في إمساك الكـأس التي سقطت متحطمة على الأرض. عاد "كلاكي- ناه" إلى الخمـود، يلهث، يراقب دوران الكؤوس نحو شفاه الشاربين،وابتسمت شـــفتاه ابتسامة استخفاف بإطراء.

حاول اثنان من الخدم -بإشارة منه- مساعدته على الجلـــوس بشكل صحيح مرة أخرى. لكن، كان جسمه ثقيلاً، وهما ضعيفـــان، ثم ترنح أربعة رجال وتمايلوا عندما أجلسوه.

- لكنْ؛ أسلوب الحياة لا يكون هنـــــا، ولا هنـــاك، تـــابع "بوربورتيك" يقول : لدينا أنا وأنت أعمال أخرى هذه الليلـــــة. الديون بليّة، وأنا في بليّة معك.

- ماذا عن ديوني؟ وكم تبلغ؟

فتش "بوربورتيك" حقيبته وأخرج مذكرةً. رشف من كأسه، وبدأ يقرأ التدوينات: في شهر آب عام 1889 ،مبلغ ثلاثمائـــة دولار. الفائدة لم تدفع. العام التالي، مبلغ خمسمائة دولار. هذا التدوين كان يشتمل على تدوين لشهرين سابقين نحـــو ألـــف دولار. إذن هنـــا يكو............،

ــ لا تذكر عدد التدوينات! صاح "كلاكي- نـــاه" بضيـــق صدر. لقد جعلوا رأسي يدور. في المحصلة كم يكون المبلغ؟

عاد "بوربورتيك" إلى المذكرة، خمسة عشر ألفـــاً وتســـعمائة وسبعة وســـتون دولاراً وخمســـة وســـبعون ســـنتاً، قـــرأ الرقـــم بإتقان وحرص.

قال "كلاكي- ناه" متشامخاً : اجعل المبلغ ستة عشـــر ألـــف دولار، الأرقام الوترية مزعجة، والآن -أنا أملك سنتاً واحداً، وهـــو من أجلك- حرر المبلغ ستة عشر ألف دولار، وأنا ســـوف أوقـــع. ليست لدي فكرة عن الفائدة، اجعلها كما ترغب، ودوّن، دفعـــها واجـــب في العـــالم الآخـــر، عندمـــا أقـــابلك، في نـــــار أب

الهنود الأعظم. عندئذ، سأدفع المبلغ. أعدُك بذلك. هذا وعدٌ من "كلاكي-ناه".

بدا "بوربورتيك" مرتبكاً، وببطء ارتفع صوت الضحك واهتزت الغرفة.

رفع "كلاكي- ناه" يديه وهتف: ليس هذا دعابة. أنا أتكلم بجدٍ. من أجل هذا أرسلت بطلبك. حرّرْ الصك.

رد "بوربورتيك" ببطء: ليست لديّ علاقات مع العالم الآخر.

سأله "كلاكي- ناه": أليست لديك رغبة لتقابلني أمام الأب الأعظم؟

وأضاف؛ من المؤكد سأكون هناك.

كرر "بوربورتيك" بتجهم: ليست لدي علاقات مع العالم الآخر.

حدق الرجل شبه الميت إليه بانذهال.

أوضح "بوربورتيك": ليست لدي علاقات تجارية مع العالم الآخر.

أشرق وجه "كلاكي- ناه" وضحك قائلاً: هذا ناشئ عن نوم الليالي الباردة.

تأمل للحظة في الفراغ، ثم قال "بوربورتيك": في هذه الحالة يتوجب عليك أن تدفع في هذا العالم.

ــ هنا، يبقى لي المترل، خذه، واحرق وثائق الديون بلــــهب الشمعة هناك.

أجاب "بوربورتيك": هذا المترل لا يساوي قيمة الديون.

ــ توجد لدي مناجم في التواء السلمون.

ــ لا يؤدون إلى نتيجة.

ــ أملك نصف السفينة التجارية /كويوكوك/.

ــ إنها في قاع نهر /اليوكون/.

جفل "كلاكي- ناه": صحيح، لقد نســيت، منــذ الربيــع الماضي، عندما ذاب الجليد.

استغرق في التفكير والوجوه صامتة، والكؤوس ملآى، بانتظار الكلام.

إذن، أنا مدين لك بمبلغ لا أستطيع دفعه... في هذا العالم!

أحنى "بوربورتيك" رأسه وألقى نظرة عجلى أسفل الطاولة.

قال "كلاكي- ناه" بمكرٍ: هذا يبدو أنك ستكون رجل أعمال فقير.

أجاب "بوربورتيك" بجسارة: لا، بل يوجد كفيل.

ــ ماذا؟ صرخ "كلاكي- ناه"، هل بقيت لي ملكية؟ سمّــــه، ويكون لك مقابل الديون.

ـــ تلك، وأشار "بوربورتيك" نحو "إل- سو".

لم يستطع "كلاكي- ناه" أن يفهم. أمعن نظره أسفل الطاولة، مسحَ عينيه مسحة خفيفة، ثم عاد يمعن النظر.

ابنتك "إل- سو" مقابل الديون. وسوف أحرق وثائق الديون بلهب الشمعة.

بدأ صدر "كلاكي- ناه" الضخم يتنهد: يا هذا! ما هذه! دعابة، يا هذا، يا هذا! وضحك باسترسال ضحكة عالية. وبفراشك البارد، ولبناتك الكبيرات، ستكون "إل- سو" أماً لهم، يا هذا! يا هذا! يا هذا!.

بدأ بالسعال والاختناق، ضربه الخدم على ظهره. يا هذا! يا هذا! بدأ ثانيةً، ثم مضى بعيداً داخل البرجاء.(*)

انتظر "بوربورتيك" بصبر، ارتشف من كأسه وأمعن النظر في الوجوه ثم قال: ـــ ليست هذه دعابة، أنا حسن النية.

صحا "كلاكي- ناه" من الشراب المسكر، ونظر إليه. حاول الوصول إلى كأسه، لم يستطع إمساكه. ناوله الخادم الكأس، ثم رشف الكأس والشراب نحو وجه "بوربورتيك".

ـــ اطردوه خارجاً! هدد "كلاكي- ناه" متوعداً، ثم مثل كلب مشدود بمقود، سحبه الخدم خارجاً ودحرجوه على الثلج.

---

* – البرجاء: اشتداد مفاجئ في أعراض المرض يحدث بين فترة وأخرى.

عندما هدأ الهياج المجنون، أشار إلى الخدم، ثم أسنده أربعة رجال عجز يترنحون، على قدميه كما كان يقابل السكارى العائدين، منتصباً، وكأس في يده، يشرب نخب الرجل الذي ينام دافئاً في الليلة القصيرة.

لن أتناول مطولاً الحسم لحالة "كلاكي-ناه".

طلبت "إل- سو" مساعدة كاتب إنكليزي في المحطة التجارية يدعى "تومي" الذي صار يدقق في الوثائق. كمبيالات غير مدفوعة، وقد فات موعد دفعها، ملكيات مرهونة، صكوك رهن الملكيات، جميعها كانت محفوظة لدى "بوربورتيك"الذي وصفه "تومي" بالسارق عدة مرات عندما كان يدقق ويتأمل تزايد الفائدة.

سألت "إل- سو"؛ تومي ، هل هذه الديون صحيحة؟

أجاب "تومي": هذه سرقة!

واصلت "إل- سو": ومع ذلك، تكون ديون.

سحلَ الشتاء بعيداً، وجاء الربيع باكراً، وظلّت مطالب "بوربورتيك" كما هي دون أن تسدد الديون.

شاهد "إل- سو" مراراً، وكررَ العرض مرات كثيرة. أحضر مشعوذين عُجّزاً، أيضاً، أسهبوا باللعنات على والدها. اللعنات الأبدية، إذا لم تسدد الدين.

ذات يوم، بعد تعرضها لشتائم المشعوذين، حسمت الأمر نهائياً مع "بوربورتيك".

قالت له: سأخبرك عن أمرين. أولاً، لن أكون زوجة لـــــك، تذكر ذلك؟

ثانياً، سوف تحصل على أخر سنت من الستة عشـــــر ألـــف دولار.........."

ــ خمسة عشر ألف وتسعمائة وسبعة وستون دولاراً وخمســة وسبعون سنتاً.

والدي قال، ستة عشر ألف دولار. وسوف تحصل عليها.

ــ كيف؟

ــ لا أعلم كيف! لكنْ ؛ ســــأجد طريقـــة. اذهـــب الآن، ولا تضايقني أكثر.

ــ وإذا أنت فعلت - ترددت لتجد عقاباً مناسباً- إذا أنــــت فعلت، سوف ادحرجك على الثلج مرة أخرى.

تجولت "إل- سو" في المقاطعة من "شيلكوت" إلى "الدلتـــا"، استحوذت على المشاعر من مخيم إلى مخيم، ثم نحو المخيمات الأبعد.

في شهر حزيران، عندما بدأ سمك السلمون بالهجرة، قـــررت "إل- سو" أن تبيع نفسها في المزاد العلني الشـــعبي، كـــي تســدد ديون والدها.

محاولات إقناعها بالعدول عن قرارها كانت عقيمة. تجـــادل معها مبشرو كنيسة القديس جورج، وجوابها دائماً: إن ديون الـرب تسدد في العالم الآخر، وديون الناس يجب أن تسدد في هذا العــالم. حاول "آكون"، لكن، الجواب؛ أنا أحبك، لكن الشرف أعظم مـن الحب، وهل أكون أنا التي تشوه سمعة والدها.

على أول سفينة بخارية سافرت الأخت "البرتــا" وإلى نهايــة ليست أفضل.

قالت "إل- سو": تجول والدي في الغابات الكثيفة واللانهائية. وهناك أراد التجوال، مع أرواح تائهة تصرخ، حتى يسدد الدين، ربما تابع إلى مترل الأب الأعظم.

سألت الأخت "البرتا": وأنت هل تعتقدين ذلك؟

ــ أنا! لا أعلم، كان هذا اعتقاد والدي.

هزت الأخت "البرتا" كتفيها بارتياب.

ــ من يعلم لو أن تلك الأمور التي نعتقد بها تصبح حقيقــة؟ تابعت "إل- سو"؛ من يعلم؟ العالم الآخر، ربما يكون بالنسبة إليـك، فردوساً وقيثارات...... بسبب اعتقادك بالجنة والقيثارات، أمــا، بالنسبة لوالدي، فالعالم الآخر، ربما يكون المــترل الكبـير حيـث سيجلس دائماً على مائدة الوليمة مع الرب.

سألت "البرتا": وأنت؟ ماذا يكون عالمك الآخر؟

ترددت "إل- سو" للحظة؛ سأرغب القليل لكليكما، أرغب رؤية وجهك كوجه والدي أيضاً.

ازدحمت محطة تانانا في يوم المزاد العلني، تجمعت القبائل - حسب تقاليد موسم هجرة السلمون- يبددون الوقت بالرقص والمرح، يتبادلون البضائع وينشرون الإشاعات. وثمة نثار مألوف من المغامرين البيض، تجار ومنقبون عن الذهب، أيضاً، عدد كبير من الرجال البيض الذين قدموا بسبب الفضول أو الاستمتاع بالعلاقات الغرامية القصيرة الأمد.

أصبح الربيع متثاقلاً، وتأخرت أسماك السلمون في هجرتها. هذا يعيق، لكنْ ؛ يثير الاستمتاع. كذلك كانت محطة تانانا تعيش حالة توتر من قبل "آكون"، الذي ظهر للعيان وصار ينشئ إعلاناً دينياً، ولوح ببندقية /ونشتسر/، وهدد أيّ إنسان بالموت فوراً إذا حاول شراء "إل-سو".

غضبت "إل-سو" وهو رفض التحادث معها، ثم ذهب إلى المكتب التجاري كي يحصل على ذخيرة إضافية.

تم اصطياد أول سمكة سلمون في الساعة العاشرة ليلاً، وفي منتصف الليل، بدأ المزاد العلني.

الموقع، أعلى قمة الحافة العالية على طول امتداد ضفة اليوكون. والشمس كانت على خط مستقيم تحت الأفق تماماً، والسماء حمراء متوهجة.

تجمع الحشد الكبير أمام الطاولة والكرسيين. في الأمام عدة رجال بيض وزعماء مختلفون و"آكون" واقفاً أيضاً والبندقية في يده.

كان هناك الدلاّل "تومي"، بناءً على رغبة "إل- سو". لكنها بدأت ووضعت البضاعة التي ستباع. كانت ترتدي زياً محلياً، ثياب ابنة الزعيم، مشرقة ومتألقة. وقفت على الكرسي، وذلك ربما كي تظهر أوصافها.

سألت: من يرغب شراء زوجة؟ انظروا إليّ. فتاة عذراء في سنّ العشرين.

سأكون زوجة جيدة للرجل الذي يبتاعني. إذا كان رجلاً أبيض، سأرتدي زي النساء البيض. وإذا كان هندياً، سأرتدي مثل - ترددت لحظة- المرأة الهندية.

أمارس الخياطة، وأستطيع حياكة ثيابي الخاصة، وأرتق. لقد تعلمتُ ذلك في كنيسة الصليب المقدس.وأستطيع قراءة وكتابة اللغة الإنكليزية، وأعرف كيف أعزف على الأرغن. وأعرف أيضاً، علم الحساب وبعض الجبر. سأكون زوجة الرجل الذي يدفع السعر الأعلى وسأنظم له وثيقة ببيع نفسي له. نسيت أن أقول، أستطيع الغناء بشكل جيد جداً، لم أعانِ من المرض طيلة حياتي، وزني مائة واثنان وثلاثون باوند، والدي ميت، ليس لي أقارب. من يريدني؟

تفحصت الحشد بجرأة ونزلت عن الكرسي. اعتلـــــت مــرة أخرى بناءً على طلب "تومي" الـــذي اعتلـــى الكرســـي الثانيـــة، وبدأ المزايــدة.

التف أربعة من خدم والدها، أحنى العمر ظهورهم، أصيبـــوا بشلل ارتجافي، أجيال خرجت من الماضي تراقب دون حركة تهريـــج الحياة الفتية.

يقف أمام الحشد ملك بونانزا ورجال /الألـــــدورادو/ مـــن اليوكون الشمالي، وبجانبهم، اثنان من منقبي الذهب، يتكآن علـــى عكازات بسبب مرض الاسقربوط.

من وسط الحشد، اندفعت امرأة هندية من المنـــاطق البعيـــدة للتنانا الشمالية، وقفت جنباً إلى جنب مع /ســــتيك/ مـــن بحـــيرة /لابرج/، ثم، ستة رحالة فرنسيين وكنديين، يتشاورون مع بعضهم.

من البعيد، صياح متكرر لديوك وحشية، لا تُعّد ولا تحصـــى. طيور السنونو تطير بخفة وسرعة فوق الرؤوس من السطح الهـــادئ لليوكون، وطيور أبو الحناء تشدو.

الأشعة المائلة للشمس المتوارية، تنبثق خلال الضباب الرقيـــق، تبدد هائل من نيران غابة الألف ميل بعداً، تحول السماء إلى لون أحمر داكن، بينما أضيئت الأرض بتوهج انعكاس الضوء الذي أضاء كـل الوجوه، وجعل كل شيء يبدو خياليا وغير حقيقي.

بدأت المزايدة ببطء. الرجل الستيكاني الغريب الذي وصل وحيداً قبل نصف ساعة عرض بصوت واثق من نفسه؛ مائة دولار. ودُهِشَ عندما اتجه إليه "آكون" مهدداً بالبندقية. جرت المزايدة ببطء وملل. عرض هندي أحمر من /التوزبكاكات/ -مرشد السفن- مائة وخمسين دولاراً. ورفع المقامر الذي كان آمراً في المقاطعة الشمالية المزاد إلى مائتي دولار.

"إل- سو"، حزينة، جُرِحَ كبرياؤها، لكن الحقيقة الوحيدة كانت تلهب غيظها أكثر على الحشد. حدث انزعاج شديد عندما شقّ "بوربورتيك" طريقه عنوة نحو الأمام، وصاح بصوت عالٍ، خمسمائة دولار! ونظر حوله بغرور. كانت نيته عرض ثروته الضخمة كالهراوة التي تصدم كل متنافس في المزاد. لكن أحد الرحالة نظر نحو "إل- سو" بعينين متألقتين ورفع السعر مائة دولار.

وفوراً، صاح "بوربورتيك": سبعمائة دولار. ثم، بنفس أسلوب "بوربورتيك" صار السعر ثمانمائة دولار للرحال. عندئذ، لوح "بوربورتيك" بهراوته مرة أخرى وهتف: ألف ومائتي دولار. استسلم الرحال بنظرة خيبة أمل مؤثرة.

لا مزايدة. ومرة أخرى، حاول "تومي" بصعوبة، لكنه لم يستطع إثارة المزايدة.

تكلمت "إل- سو" مع "بوربورتيك": لترجح لأجلك المزايدة، لكنْ؛ هل نسيت الأمر الذي أخبرتك به، أنا لن أكون زوجة لك أبداً.

رد "بوربورتيك" بحسم: هذا مزاد علني، وسأبتاعك بوثيقة البيع. لقد دفعت ألف ومائتي دولار، أنت تساوي مبلغاً زهيداً.

ـــ انه ثمن زهيد جداً! صاح "تومي". وماذا يهم إذا كنت أنا الدلاّل؟ ذلك لا يمنعني من المزايدة؛ ألف وثلاثمئة دولار.

ـــ ألف وأربعمائة دولار من "بوربورتيك".

همس "تومي" في إذن "إل- سو" سأبتاعك بكونك أختاً لي، ثم نادى بصوت عالٍ: ألف وخمسمائة دولار.

ـــ ألف ورقة نقدية فئة الدولارين، لملك الدورادو. كفّ "تومي" عن الاشتراك.

للمرة الثالثة، لوح "بوربورتيك" بهراوة ثروته؛ رفع السعر خمسمائة دولار.

جُرِحَ كبرياء ملك الدورادو، لم يسبق لأحد أن تجرأ على مضاربته. ثم، أعاد الضربة برفع السعر المعروض خمسمائة دولار.

أصبح سعر "إل- سو" ثلاثة آلاف دولار. ورفع "بوربورتيك" قيمة السعر خمسمائة دولاراً، وصار يلهث عندما رفع الملك قيمة السعر ألف دولار.

مرة أخرى، رفع السعر خمسمائة دولار، ثم لهث ثانية عندما رفع الملك السعر مرة أخرى ألف دولار.

غضب "بوربورتيك"، وشعر أن كبرياءه جُرح. كانت قوته في تحدٍ مع قوة ملك الدورادو، تحدٍ أخذ شكل الثروة. لا يريد أن يظهر ضعيفاً أمام الناس.

أصبحت "إل- سو" حادثاً عرضياً. الاقتصاد والتوفير من الليالي الباردة لكل سنوات عمره، حان وقت تبديده. بلغ سعر "إل-سو" ستة آلاف دولار. رفع السعر ألفاً، فأصبح سبعة آلاف. وعندئذ، وعلى هذه الحال في مزايدة بألف دولار، ارتفعت الأصوات /ارتفع سعرها/. وفي الألف الرابع عشر، وقف اثنان من الحشد كي يستنشقا الهواء. في هذا الوقت، حدث غير المتوقع في الاستراحة المؤقتة. المقامر الذي كان له المقدرة على التخمين، شكل مجموعة من أصدقائه وعرض سعر ستة عشر ألف دولار.

قال "بوربورتيك" بضعف: سبعة عشر ألف دولاراً.

ــ ثمانية عشر ألفاً، قال الملك.

جمع "بوربورتيك" قوته: عشرون ألفاً.

انسحبت مجموعة الأصدقاء. رفع الملك السعر ألف دولار، وأضاف "بوربورتيك" أيضاً، ألف دولار.

وأثناء ذلك، دار "آكون" من واحد إلى آخر، نصف مهدد ونصف فضولي ، وكأنه يحاول معرفة ردود الفعل، إذا حاول أن يقتله. وعندما استعد الملك للمزاودة التالية، حلّ المسدس عن وركه وقال: ثلاثة وعشرون ألفاً.

قال "بوربورتيك": أربعة وعشرون ألفاً، وابتسم ابتسامة وحشية عريضة لوثوقه أن الملك قد ارتعش أخيراً.

انتقل إلى الجانب الآخر نحو "إل- سو". تمعّن اهتمامها للحظات، ثم قال: وخمسمائة دولار.

ــ خمسة وعشرون ألف دولار، رفع "بوربورتيك" السعر.

هز الملك رأسه ورفض مواجهة نظرة "تومي" الدفاعية.

لمحت "إل- سو" آكون يندفع بسرعة ويحيط بـ "بوربورتيك"، وانحنت نحو الخادم وهمست في أذنه، وبينما كان "تومي" يتجادل مع ملك الدورادو من أجل رفع سعر المزايدة قال له:

اذهب... اذهب... اذهب" احكمْ الهواء. مضى الخادم نحو "آكون". لكنه لم يفعل شيئاً.

قالت "إل- سو": اجلبوا كفتي ميزان.

قال "بوربورتيك": سأجعل الدفع في مترلي.

كررت "إل- سو": اجلبوا كفتي الميزان. سيكون الدفع هنا حتى يستطيع الجميع مشاهدته. جُلبت كفتا الميزان الذهبيتان من المكتب التجاري، بينما مضى "بوربورتيك" إلى مترله وعاد مع رجل يسير خلفه، يحمل على كتفيه أكياساً من جلد الموظ مملوءة بمسحوق الذهب، يسير خلف "بوربورتيك"أيضاً رجل وفي يده بندقية، عيناه مثبتتان على "آكون" فقط.

قال "بوربورتيك": الديون وصكوك الرهن بخمسة عشر ألفاً وتسعمائة وسبعة وستون دولاراً وخمسة وسبعون سنتاً.

استلمت "إل- سو" الصكوك وتدوينات الديون، ثم قالت "لتومي": اعتبرهم ستة عشر ألف دولار.

قال "تومي": يبقى عشرة آلاف دولاراً تُدفع ذهباً.

أومأ "بوربورتيك" رأسه موافقاً، ثم فك أربطة الأكياس.

وقفت "إل- سو" على طرف الحافة،ومزقت الأوراق مِزقاً صغيرة وقذفتهم عالياً يتطايرون فوق سطح اليوكون. بدأ الوزن، لكن توقف.

قال "بوربورتيك" لـ "تومي" عندما كان يضبط كفتي الميزان: طبعاً، بسبعة عشر دولاراً.

ردت "إل- سو" بحدة قاطعة: بستة عشر دولاراً.

السائد في كل المقاطعة، سبعة عشر دولار لكل أونصة ذهب، وكذلك في الأعمال التجارية. أجاب "بوربورتيك".

ضحكت "إل- سو" وقالت: هذه عادة جديدة. بدأت هذا الربيع، لكن عندما تكونت ديون والدي في الأعوام السابقة والعام الماضي، وعندما أنفق المال الذي حصل عليه منك، كانت الأونصة الواحدة تساوي ستة عشر دولاراً للمسحوق. ولذلك لي ستة عشر دولاراً، وليس سبعة عشر دولار.

نخر "بوربورتيك"، وأقرّ بصحة كلامها. ثم بدأ الوزن ثانية.

قالت: اجعل الأوزان بثلاث كومات، ألف دولار هنا، ثلاثة آلاف هناك، وهناك ستة آلاف دولار.

تتابع وزن الذهب ببطء، والجميع يراقب بصمت "آكون". وقال أحد الحضور، لو أنه ينتظر حتى يتم دفع المال. ولاقى هذا الكلام قبولاً لدى الحضور، ثم انتظروا ما سيفعله "آكون"، وكذلك كان رجل "بوربورتيك" يراقبه.

انتهت عملية الوزن، ثلاث كومات من مسحوق الذهب الأصفر الداكن على الطاولة. قالت "إل- سو" موجهة كلامها لـ "تومي": هذه كومة الثلاثة آلاف دولار تعطى لرفاق والدي، تسديداً لديونه لهم، أنت تعرفهم. أربعة رجال عجز. وهذه كومة الألف دولار، خذها، وتأكد أنهم لا يجوعوا ولا ينقصهم التبغ.

أما كومة الست آلاف دولار، فقد غرزت "إل- سو" المغرفة ضمن الكومة، وبدورة فجائية قذفت بشكل دائري محتواها بعيداً، تنهمر وابلاً ذهبياً على سطح اليوكون.

أمسك "بوربورتيك" بمعصمها عندما غرزت المغرفة ثانية في الكومة.

قالت بهدوء: إنها ملكي. ترك "بوربورتيك" معصمها، وصرّ على أسنانه، وعبس بغموض عندما تابعت ما فعلته في المرة الأولى حتى لم يبق أثر للكومة.

كانت نظرات النـــاس مركـــزّة علـــى "آكـــون"، وفوهـــة بندقية رجل "بوربورتيك" الممدة عبر ثنيـــة ذراعـــه موجهـــة نحـــو "آكون" على بعد ياردة، وإبهامه علـــى الزنـــاد. لكـــن، لم يفعـــل "آكون" شـيئاً.

قال "بوربورتيك" عابساً: حرَّر وثيقة البيع.

حررْ "تومي" الوثيقة التي ورد فيها؛ ان المـــــرأة "إل- ســـو" أصبحت حقاً شرعياً ومكتسباً للرجل "بوربورتيك".

بعد أن وقعت "إل- سو" على الوثيقة، أخذها "بوربورتيـــك" وطواها ثم وضعها في محفظته.

فجأةً، ومضت عيناه، ثم خاطب "إل-سو": ما دفعته ليـــــس ديون والدك، بل كان ثمنك. بيعة المزاد، أعمال اليوم، ليس من العـام الماضي أو الأعوام السابقة. لقد فقدت دولاراً في كل أونصة، فقدت ستمائة وخمسة وعشرين دولاراً، إن السعر في المكتب، سبعة عشـــر دولاراً، وليس ستة عشر دولاراً.

فكرت "إل- سو" للحظات، أدركت الخطأ الذي ارتكبتـــه. ابتسمت، ثم ضحكت وقالت:

أنت على حق، أنا ارتكبت خطأ، أنت دفعــــت، والذهـــب ضاع. لم تفكر جيداً، ذكاؤك بليد هذه الأيام، لقد أصبحت عجوزاً. إنه ضياعك.

لم يجبْ. ألقى نظرة قلقة على "آكـــون"، ثم، مــط شــفتيه وارتسمت على وجهه إشارة خفيفة من الوحشية وقـــال: تعــالي، سوف نذهب إلى مترلي.

سألته دون أن تتحرك: هل تذكر الأمرين اللذيـــن أخـــبرتك عنهما في الربيع؟

أجاب: إن رأسي مليء بأشياء قالتها نساء اهتممتُ بهن.

تابعت "إل- سو" بحذرٍ: أنا أخبرتك، أنني سأدفع، وأخـــبرتك أنني لن أصبح زوجتك أبداً.

لكن كان ذلك قبل وثيقة البيع. قال ذلك وهو يطقطق الورقة بين أصابعه داخل المحفظة.

لقد اشتريتك أمام الناس. أنت حقي. لن تتبرئي مـــني، أنـــتِ تنتمين لي.

قالت "إل- سو" بهدوء: أنا أنتمي إليك.

ـــ أنا أملكك.

ـــ أنت تملكني.

ارتفع صوت "بوربورتيك" ببطء وقال ببهجة النصــــر: أنـــا أملكك، مثل الكلبة.

كررت "إل- سو" بهدوء: أنت تملكني، مثل الكلبـــة. لكـــن نسيت أمراً أخبرتك به.

لو أي شخص آخر اشتراني، كنت سأصبح زوجة له، زوجة جيدة لذاك الرجل. هذه كانت رغبتي. لكن لك أنت، لن أكون زوجة أبداً. لذلك أنا أكون كلبتك.

أدرك "بوربورتيك" أنه لعب بالنار، وصمم على اللعب بقوة.

ــ أنا أتكلم معك بصفتك كلبة، ولست "إل-سو"، أطلب منك أن تأتي معي إلى متزلي. ومد يده ليمسك ذراعها، لكن بإيماءة أجبرته على التراجع.

ــ ليس بهذه السرعة، "بوربورتيك". أنت اشتريت كلبة. الكلبة تعدو سريعاً وبعيداً. هذا يكون ضياعك. أنا كلبتك. وماذا يحدث إذا أنا عدوت بعيداً.

ــ مثل مالك الكلب، سأضربك........."

ــ عندما تمسكني.

ــ عندما أمسكك أنا!

ــ إذن، أمسكني.

وصل إليها بسرعة، لكنها تملصت منه. ضحكت وهي تدور حول الطاولة. أمر "بوربورتيك" رجل البندقية الذي يقف بجانبها أن يمسك بها، وعندما مد الهندي يده نحوها، عاجله ملك "الدورادو" بضربة تحت إذنه أسقطته أرضاً وسقطت البندقية. عندئذ أصبحت الفرصة مناسبة، لكن "آكون" لم يفعل شيئاً.

كان "بوربورتيك" رجلاً عجوزاً، لكن الليالي الباردة استبقت له نشاطه. لم يقم بالدوران حول الطاولة. وثب فجأة عبر الطاولة، خمدَ دفاع "إل- سو". وثبت خلفاً تبكي مذعورة، سيقبض عليها. لكن عندما تقدم "بوربورتيك"، مد "تومي" رجله فتعثر "بوربوتيك". وسقط على وجهه أرضاً. عندئذ نالت "إل- سو" مخرجاً.

إذن، أمسكني. ضحكتْ وهي تشق طريقها بين الجموع، وهربت بعيداً.

ركضت "إل- سو" برشاقة وسهولة، كمن "بوربورتيك"، وركض بسرعة ووحشية.كان يفوقها في العدو. كان في شبابه الأسرع عدواً من كل أقرانه.

لكنها استعملت أسلوب المراوغة. صبية في زي محلي، لا تتعثر قدماها مع الجزء السفلي لتنورتها. جسمها المرن، يتلوى برشاقة ومرونة، متحدياً أصابع قبضة "بوربورتيك".

باهتياج وضحك، تفرق الحشد الكبير هنا وهناك كي يشاهدوا المطاردة.

انطلاقاً من مخيم الهنود، كل حركة مفاجئة، دوران، حركات عكسية، كانا يظهران ويتواريان داخل المخيم. بدت "إل-سو"أنها توازن نفسها مع الهواء بذراعيها. الآن، جانب واحد، الآن على الجانب الآخر، وأحياناً جسمها، تمايلت أيضاً، عندما أنجزت انحناءاتها

الحادة. ودائماً، يثب "بوربورتيك" خلفها، أو يثب إلى هذا الجانب، أو ذاك، مثل كلب صيد تمايل مشدوداً خلفها. عبرا الأرض الجرداء خلف المخيم واختفيا في الغابة.

في غضون ذلك، تناول "آكون" طعامه على رصيف السفينة التجارية. وبعد مغادرة الآخرين لم يعر اهتماماً، ولم يفعل شيئاً لردود الفعل الغاضب المستاء من أهالي محطة تانانا.

عاد "بوربورتيك" بعد أربع وعشرين ساعة منهكاً ومتوحشاً لم يتكلم مع أحد سوى "آكون". حاول التحرش به ومشاجرته. لم يكترث "آكون" وسار في طريقه وهو يهزّ كتفيه. لم يهدر "بوربورتيك" وقته، فقد جهزّ ستة من الرجال الشبان. اختار أفضل الرحالة والكشافة، وانطلقوا مسرعين داخل الغابة.

في اليوم التالي، توجهت السفينة البخارية (سياتل) نحو أعلى النهر. رست على الشاطئ، وبعد التزود بالخشب، تحررت الحبال وتحركت السفينة.

كان "آكون" على متن السفينة، في قمرة مدير الدفة. وبعد ساعات قليلة أخذ دوره على الدولاب. شاهد على مبعدة من الشاطئ (كانو)(*) صغير وعلى متنه شخص واحد. تمعنّ به بحرصٍ، ترك الدولاب مثبتاً باتجاه واحد، ونزل بهدوء نحو الأسفل.

* - الكانو : زورق طويل خفيف، يُقاد بمغدق.

دخل الكابتن قمرة مدير الدفة وسأل: ما المشكلة؟ المياه جيدة. نخرَ "آكون". شاهد (كانو) كبيراً يغـــادر الضفـــة وعلـــى متنـــه بعض الأشخاص.

بينما كانت السفينة (سياتل) تضّل مسارها، صححَ وضعيـــة الدولاب أكثر قليلاً. اهتاج الكابتن غضباً. وقال متأكداً: إن المـــرأة الهندية وحدها. لم يجب "آكون", كل نظراته باتجاه المـــرأة الهنديـــة و(الكانو) المطارد، وخلفه ستة مجاديف تجدف بسرعة، بينما المـــرأة الهندية تجدف ببطء.

قال الكابتن وهو يمسك بالدولاب: سوف تجنح السفينة.

أمسك "آكون" الدولاب بكل قوتـــه، ونظـــر إلى الكـــابتن متفحصاً إياه.

ببطء حرر الكابتن برامق(*) الدولاب، وقال في نفسه محتقـراً: فتى غريب الأطوار. أوقف "آكون" السفينة (سياتل) على أطـــراف المياه الضحلة وانتظر حتى شاهد أصابع المرأة الهندية تحـــاول التعلـــق بالدرابزين الأمامي. عندئذ أشار من أجل مساعدتها وحرك الـدولاب بصعوبة إلى الجانب الأخر.

(الكانو) الكبير كان قريباً جداً، لكنْ؛ بدأت تتوسع الفجـــوة بينه وبين السفينة البخارية.

---

* – برمق الدولاب: شعاع الدولاب.

ضحكت المرأة الهندية، اتكأت على الدرابزين وهتفت: إذن إمسكني "بوربورتيك". غادر "آكون" و"إل ــ سو" السفينة البخارية . في حصن (بوكون) جهزا قارباً صغيراً ثم صعدا نحو نهر (بوركوباين).

كانت رحلة شاقة، امتد الطريق عبر أهم جزء في العالم؛ لكن، "آكون" سافر خلاله سابقاً. عندما وصلا إلى منابع (بوركوباين) تخليا عن القارب، وتابعا سيراً على الأقدام عبر الجبال الصخرية.

أحبّ (آكون) السير خلفها، يراقب حركاتها. أحبّ الموسيقا التي تصدر عن حركاتها. أحب بطتي الساقين المدورتين في قرابهما الجلدي الأسمر الناعم، الكاحلين النحيفين، القدمين الصغيرتين داخل الموكازين وقد أصيبتا بالتعب خلال الأيام الطويلة. قال وهو ينظر إليها: أنت كالريح الخفيفة، . أنت كالآيل، "إل سو"، أنت مثل الآيل، وعيناك كعينيه، أحياناً، عندما تنظرين إليّ، أو عندما تسمعين صوتاً لاذعاً وتندهشين فيما إذا كانت تلك الجلجلات خطرة.

عيناك تشبه الآن عيني الأيل وأنت تنظرين إليّ.

رقّ قلب "إل سو"، انحنت، ثم قبّلته.

قال "آكون" فيما بعد: عندما نصل إلى /الماكيتري/، لن نتأخر هناك، سوف نذهب جنوباً قبل أن يدركنا الشتاء. سنذهب إلى أرض الشمس، حيث لا يوجد ثلوج. لكنْ؛ سوف نعود.

تجولت وشاهدت مناطق كثيرة في العالم، لا توجد أرض تشبه آلاسكا، لا شمس مثل شمسنا، والثلج يصبح جميلاً بعد صيف طويل.

قالت "إل رسو": وسوف تتعلم القراءة.

أجاب: بالتأكيد، سأتعلم القراءة.

وصلا إلى قبيلة الماكيتري، وحدث ما لم يكن في الحسبان.

التقيا مصادفة مع جماعة من هنود الماكيتري، ثم، أثناء الصيد، جُرِحَ "آكون" مصادفة من رصاصة انطلقت من بندقية شاب هندي وكسرت ذراعه اليمنى، وتوغلت أكثر، وحطمت له ضلعين.

كان "آكون" يعرف بعض الإسعافات الأولية، لكن، "إل رسو" تعلمت في كنيسة الصليب المقدس، إسعافات أكثر تطوراً. وأخيراً، تجبرت العظام، واستلقى بجانب النار كي يلتئم الجرح. واستلقت هي، أيضاً، بجانب النار، مستنجدة بالدخان لطرد البعوض بعيداً.

آنذاك، وصل "بوربورتيك" ورجاله الستة.

"آكون" يتأوه لضعفه ويستغيث بالماكيترين: "بوربورتيك" يطلب، والماكيتريون في ارتباك. وكاد "بوربورتيك" يقبض على "إل سو"، ولكنهم لم يسمحوا له.

يجب أن تعطي المحكمة قرارها في حقيقية العلاقة بين الرجل والمرأة، قال ذلك عضو مجلس الرجال العجز. ثم أردف

بصوت عال: هذه محكمة مخلصة، ربما لأنه لا تضم شباناً، قلوبهم رقيقة.

جلس الرجال العجز ذوو الوجوه النحيلة والمجعدة حول النار الداخنة.

لهثوا وأطلقوا أنفاساً في الهواء —الدخان ليس جيداً لهم— وأحياناً يضربون بأيديهم الذابلة البعوض الذي كان يتحدى الدخان.

ثم، بعد هكذا جهد، سعلوا بعمق وألم موجع. بعض البصاق، دماً، وأحدهم أحنى رأسه إلى الأمام، ثم، نزف فمه ببطء، سيطر عليهم غثيان السعال. انهم كالموتى، وأجلهم كان قصيراً. تلك هي المحكمة.

ـــ ...... وأنا قد دفعت من أجلها ثمناً باهظاً. اختتم "بوربورتيك" اتهامه، هكذا ثمن، لم تملكوه أبداً. بيعوا كل الجلود والفراء التي لديكم، بيعوا كل خيامكم وقواربكم وكلابكم، بيعوا كل شيء. ربما لن تحصلوا على ألف دولار. ومع ذلك أنا دفعت ثمن المرأة "إل- سو" ستة وعشرين مضروباً بسعر كل سهامكم ورماحكم وبنادقكم، جلودكم وفراءكم، خيامكم وقواربكم وكلابكم. إنه سعر باهظ.

أحنى الرجال العجز رؤوسهم ببطء ووقار موافقين. توسعت حدقات عيونهم الذابلة تعبيراً عن الدهشة التي أصابتهم لدى سماعهم

أن المرأة "إل- سو" تساوي هذا الثمن. مسحَ الرجل النازف فمه ، وسأل: أهذا الكلام صحيح؟

أجاب كل رجل من رجال "بوربورتيك"، إن ذلك صحيح.

سأل "إل- سو"؛ أصحيح ما قاله الرجل "بوربورتيك"؟ وأجابت "إل- سو؛ إن كلام "بوربورتيك" صحيح.

قال "آكون": لكن، لم يعلن "بوربورتيك" أنه رجل عجوز، أب لبنات أكبر من "إل- سو". وأكدت "إل-سو" كلام "آكون"؛ نعم إنه رجل عجوز.

قال الرجل النازف فمه: إن "بوربورتيك"، أراد أن يختبر مقدرته قياساً لعمره، نحن رجال عجز. حلقة الرجال العجز، مضغوا علكتهم، وأومؤوا برؤوسهم استحساناً، ثم سعلوا.

قالت "إل- سو": لقد أخبرته، لن أكون زوجته أبداً.

سأل الرجل ذو العين الواحدة: مع ذلك أخذت منه ستة وعشرين مضروباً بكل ما تملكه؟

صمتت "إل- سو" ولم تجب.

اهتاج غيظاً وقال: أليس هذا صحيحاً؟

قالت: هذا صحيح، لكن سأهرب مرة أخرى، دائماً سوف أهرب.

ذلك من شأن "بوربورتيك"، ليفكر في الأمر، ونحن علينا أن نفكر ملياً بالحكم.

قال ذلك رجل آخر من الرجال العجائز. وسأل "آكون"؛ ما السعر الذي دفعته أنت؟ أجاب "آكون": لم أدفع أي ثمن. هي أغلى من كل ثمن. لا أقارنها بمسحوق الذهب ولا بكلاب وخيام وفراء.

تناقش أعضاء المحكمة الوقورة فيما بينهم، وتمتموا بصوت خفيض.

قال "آكون" بلغة إنكليزية: هؤلاء العجز كالجليد. لن أصغي لحكمهم، "بوربورتيك" إذا أخذت "إل- سو"، سوف أقتلك.

كفّ الرجال العجز عن المناقشة مع أنفسهم، ونظروا إليه بارتياب وقال أحدهم: نحن لم نفهم ما تقول.

قال "بوربورتيك" نيابة عن "آكون": سوف يقتلني، لذلك أطلب أن تأخذوا بندقيته، وتضعوا بعض رجالكم حوله، كي لا يلحق الأذى بي. هو رجل شاب، وماذا تعني عظام محطمة للشاب!

تمدد "آكون" بائساً بعد أن أخذوا منه البندقية والسكين، وفي الجانب الأخر ، جلس رجال شبان من الماكيتريين.

نهض الرجل ذا العين الواحدة، ووقف منتصباً: لقد أدهشنا السعر الذي دُفِعَ لمجرد امرأة واحدة، لكن معرفة السعر لا يهمنا. نحن هنا المحكمة. ونحن نصدر الحكم. لقد بات معروفاً للجميع أن

"بوربورتيك" دفع مبلغاً باهظاً من أجل "إل- سو". ولماذا فعلت "إل- سو" ذلك به. وجلس بتثاقل، ثم، سعل.

أحنى الرجال العجز رؤوسهم، وسعلوا.

صرخ "آكون" بلغة إنكليزية: سوف أقتلك.

وقف "بوربورتيك" وابتسم. وقال يوجه كلامه لمجلس الرجال العجز؛ أنتم تملكون حق إصدار الحكم الصادق، ورجالي الشبان سوف يمنحوكم الكثير من التبغ.

ـــ الآن، اطلبوا من المرأة أن تحضر أمامي.

عندما حاول الرجال إمساك "إل- سو" من ذراعيها، صرّ "آكون" على أسنانه. لكن "إل- سو" رفضت النهوض، عندئذ اقتيدت نحو "بوربورتيك" ووجهها ينفث لهباً غاضباً.

أمرها "بوربورتيك": اجلسي هنا عند قدميَ، كي أكلمك.

فكرَ للحظات. ثم قال: إنها الحقيقة، أنا رجل عجوز. مع ذلك أستطيع فهم أساليب الشباب. ومع أنني لم أعد شاباً، لم أفقد كل الحماس، و لم أكن قد فكرت أن هذين الساقين للركض خلال كل السنوات المتبقية لي.

"إل- سو" كالآيل، تستطيع الجري بسرعة ورشاقة. أنا أدركت ذلك عندما ركضت خلفها. هذه الحالة ليست جيدة لامرأة دفعت ثمنها مبلغاً باهظاً وتركض هكذا سريعاً، ومع

ذلك تتهرب مني وتجري نحو "آكون" الذي لم يدفـــع ثمنـــاً بأي حــال.

عندما وصلت إلى شعبكم الماكيتري، كنت على رأي واحــد. وعندما أصغيت لكم في المجلس، وفكــــرت بســاقي "إل- ســو" السريعتين، صرت بعدّة أراء.

الآن ، ومرة أخرى ، لدي رأي واحد. لكنَّ؛ هـــذا الــرأي مختلف عن الرأي الأول، عندما قدمت إليكم. دعوني أقول رأيي.

عندما يهرب الكلب من سيده مرةً. ســـوف يــهرب مـــرة أخرى. لا مشكلة في عدد المرات التي يُعــــاد بهـــا، في كـــل مـــرة سيهرب ثانيــة.

عندما يكون لدينا مثل هذه الكلاب، نبيعــــهم. "إل- ســـو" كالكلبة التي تهرب. أنا سأبيعها. هل يوجد شخص مـــا في المجلـــس يرغب بشرائها؟

سعل رجال المجلس، وظلوا صامتين.

تابع "بوربورتيك": "آكون" سيشتري، لكن لا يملك مالاً. من أجل ذلك، سأعطيه "إل- سو"، كما هو قال، دون ثمن، وأرغـــــب إعطاءه إياها الآن.

انحنى وأخذ "إل- سو" من ذراعها، ثم قادها إلى حيث يتمـــدد "آكون" على ظهره.

قال موجهاً حديثه إلى "آكون": طبعها سيئ. ثم أجلسها عند قدمي "آكون". كما هربت مني سابقاً، ربما ستهرب منك في الأيام القادمة. لكن لا حاجة للخوف، وإن كانت ترغب الهروب دائماً، لكن، سوف أتأكد من ذلك، إنها ذات دهاء عظيم. أنا أعترف أن دهاءها ترك انطباعاً عميقاً داخلي. ومع ذلك فكرت بنفسي أن أقدم خدمة لك لمرة فقط، وسأضمنها لك.

انحنى "بوربورتيك"، صالب قدمي "إل- سو"،بحيث وضع مشط قدمها فوق مشط القدم الأخرى؛ وعندئذ، قبل أن يعرف أحد هدفه، أفرغ رصاص بندقيته على الكاحلين. وعندما حاول "آكون" جاهداً النهوض والإفلات من سيطرة الرجال الشبان، صدر صوت تحطيم عظم، تحطم ثانيةً.

قال القضاة العجز كل للآخر: هذا عدلٌ.

لم يصدر عن "إل- سو" صوت. جلست ونظرت إلى كاحليها المحطمين، لن تستطيع السير ثانية أبداً.

قال "آكون" محدثاً "إل- سو": رجلاي قويتان، لكن، لن تحملاني بعيداً عنك أبداً.

نظرت إليه "إل- سو" ولأول مرة منذ أن عرفها شاهد الدموع في عينيها.

قال لها: عيناك تشبه عيني الآيل، "إل- سو".

سأل "بوربورتيك": أيكون هذا عدلاً؟ ثم ابتسم بسخرية عندما كان يستعد للرحيل.

هذا يكون عدلاً، أجابت المحكمة العجوز وغرقت في صمت رزين.

قطعة من
شريحة لحم

بآخرِ كسرة خبز مسحَ "توم كينغ" طبقةُ من أخر ذرة صلصة مرقة اللحم بالطحين، وصار يمضغ ببطءٍ وتأمُّل.

لاشك كان جائعاً ،وعندما نهض عن المائدة، سكن شعور الجوع لديه، وقد تناول الطعام بمفرده.

إلى الغرفة الأخرى، طفلان أرسلا للنوم، ربما نسيا أنهما ينامان دون عشاء. وزوجته جالسة بصمت، تمسك اللاشيء، تراقبه بعينين قلقتين. كانت امرأة من طبقة العمال، نحيفة ومتعبة، وقد ارتسمت على وجهها ملامح لجمال مُبكر لا يرغب في الظهور. استعارت الطحين من أجل صلصة مرقة اللحم من الجيران في الجانب الأخر من الرواق. وقد أنفقت أخر بنسين لشراء الخبز.

جلس قرب النافذة على كرسي متداع ناءَ تحت ثقل وزنـــــه، وبهدوء آلي وضع غليونه في فمه ومالَ نحو جَيب معطفه. لا يوجـــد تبغٌ، عبس ووضعَ غليونه جانباً.

كانت حركاته بطيئة، ثقيلة تقريباً، وكأنه أرهـــق عضلاتـــه بالوزن الثقيل. وكان صلباً، بدا بهيئة قليلة الجاذبية .

ثيابه خشنة عتيقة، فضفاضة. أجزاء حذائه العلويـــة كـــانت أضعف من أن تمسك نعلاً جديداً ثقيلاً يُشير إلى تاريخ جديد لإنتعال الحذاء.

قميصه القطني الرخيص الثمن - بشلنين- بدا لونه ملطخـــاً بدهان لا يمكن إزالته. لكن سمات الوجه تدل بوضوح، من كان "توم كينغ"؟

الوجه، وجه ملاكم نموذجي ممتاز، ملاكمٌ أمضـــى أعوامـــاً طويلةً في حلبة الملاكمة، ثم، بكل تلك المعاني الظاهرة أكّـــد علـــى علامات القتال البهيمي.

دون شك، كانت الملامح عابسة، ثم، ما مـــن قســـمة مـــن قسمات الوجه، ربما، أشارت إلى التهرب من الواقع، كان وجـــهاً حليقاً ونظيفاً.

الشفتان المشوهتان متآلفتان مع فمٍ خشنٍ، كأنه جرحٌ بليـغٌ في الوجه. الحنك صلبٌ، ثقيلٌ...... عدواني. العينـــان — بـــطء في

الحركة- بدتا خاليتين من المشاعر وغائرتين تحت حاجبين أهلبين بجفنين ثقيلين.

حيوان صرف، ذاك كان هو، والأكثر شبهاً بالملامح الحيوانية، عيناه الناعستان - كعيني الأسد- عينا حيوان ملاكم.

الجبين مائل خلفاً نحو الشعر، الذي، قُصَّ قصيراً، يُظهرُ أوراماً رديئةً. الأنف حُطِمَّ مرتين بلكمات لا تُعدّ ولا تحصى وأخذ شكلاً مختلفاً، وأذن شوهتها لكمات متكررة، تورمت وزاد حجمها ضعفين، بينما كانت اللحية حليقة ونمت قوية بسرعة في الجلد وأعطت الوجه بقعة زرقاء داكنة. إجمالاً، كانت حالة وجه الرجل ، حالة خوف في زقاق مظلم أو مكان مُوحش. مع ذلك لم يكن "توم كينغ" بمجرم، ولا أقدم على عمل إجرامي.

خارج نطاق الملاكمات، كان عادياً في حياته، لا يسيء إلى أحد. و لم يعرف أبداً سبباً لنزاعٍ، كان محترفاً، وكل ملاكماته الوحشية كانت من أجل مظاهر احترافه. وخارج الحلبة كان يسير ببطء، حالته طبيعية هادئة، ثم، في أيام شبابه السابقة، عندما كان المال متوفراً، كان سخياً أيضاً. لا يحمل أحقاداً، وأعداؤه قليلون. كانت الملاكمة بالنسبة له عملاً.

في الحلبة، ضرب ليؤذي، ليشوه، ليُهلك، لكن في ذلك لا يوجد أعداء. كانت الملاكمة قضية عمل محضة. الجمهور المحتشد، يدفع من أجل مشاهدة رجلين

يصرع أحدهما الأخر بضربة قاضية. الفائز يأخذ الحصة الأكبر من الجائزة المالية.

قبل عشرين عاماً، عندما واجه "توم كينغ" خصمه "كوجر الودلومولو" كان يعلم أن فك "كوجر" قد عولج مدة أربعة أشهر بعد أن تحطم في مباراة ملاكمة في "نيوكاسل". وهو قابله من أجل ذلك الفك، وقد حطمّه في الجولة التاسعة. لم يكن يحمل له أيّ حقد، لكن كان الأسلوب الأوثق ليصرع "كوجر" ويفوز بالحصة الأكبر من الجائزة المالية. كذلك، لم يكن "كوجر" يحمل حقداً. إنها مباراة ملاكمة وكلاهما يعرف قواعد المباراة، واللعب.

جلس قرب النافذة صامتاً ببلاهة – لم يكن ثرثاراً قط– يحدق في يديه. برزت الشرايين في قفا كفيه منتفخةً، والبراجم، تهشمت وعُطبت من تكرار اللكم، وأثبتت استعمالها كيف صارت حالة الشرايين.

لم يسمع أبداً أن حياة الرجل كانت الحياة لشرايينه، لكن عرف جيداً المعنى الكبير لانتفاضها، الشرايين المنتصبة. قلبه، أيضاً، ضخ دماً كثيراً بضغط أعظمي خلال تلك الشرايين . وهي لن تعمل مدة أطول. المرونة خرجت منها، وتحول ثباته بانتفاضها.

الآن، لا ريب هو مرهق. لم يستطع الصمود اثنتي عشرة جولة سريعة لمدة طويلة، بقوة وعنف كبيرين، يلاكم، يلاكم، يلاكم، من جرس إلى جرس، يتبادل لكمات عنيفة، وفي ذروة تبادل اللكمات

العنيفة، ضُربَ مراراً نحو الحبال، ويرد بضرب الخصم نحو الحبال أيضاً، وتبادل اللكمات الأعنف والأحكم يبلغ ذروته في الجولة الثانية عشرة، يقف المشاهدون على أقدامهم ويهتفون، يدفع نفسه بعنفٍ، يضرب، يتفادى وابلاً من اللكمات اثر وابل، وبالمقابل يتلقى وابلاً من اللكمات، وطيلة الوقت يضخ القلب دافعاً الدم في العروق. وفي كل مرةٍ، تنتفخ العروق ثم تتقلص ثانية، مع ذلك ليس تماماً، في البدء ضآلة تدريجية دقيقة إلى أبعد حد- تبقى متوسطة الصلابة أكبر من السابق. حدّق بها وبمفاصل أصابعه المهشمة، ثم، للحظةٍ، أدرك متخيلاً التفوق العضلي لهاتين اليدين قبل التهشم، لقد هشمتا على رأس "بيني جونز"، أدرك ذلك بطريقة أخرى مثل الرعب الويلزي. عاوده إحساس الجوع. أطبق قبضتيه,ثم دمدم بصوت عال : يا للقسوة ! آلا أستطيع تناول قطعة صغيرة من شريحة لحم !

قالت الزوجة نصف مبررة: حاولت مع "بورك" و"ساولي".

سأل : ألا يريدان؟

قالت متلعثمة: قال "بورك"، ليس لديه بنس..........،

نخر "توم كينغ" لكن لم يجب. كان يفكر بكلبٍ من كلاب الصيد اعتنى به أيام شبابه عندما كان يأكل شرائح اللحم دون حدود.

لقد سبق و استدان من "بورك" قيمة نحو ألف شريحة لحم. لكن الزمن تبدل.

أصبح "توم كينغ" متقدماً في السن، والرجال العُجز، يلاكمون في أندية الدرجة الثانية، ولا يمكن لهم أن يتوقعوا الوقـــوع في ديـــن الفواتير مع أصحاب المتاجر.

كان "توم كينغ" قد استيقظ صباحاً ولديه رغبة شديدة لقطعة من شريحة لحم. لم يكن قد تدرب تدريباً مناسباً لهذه الملاكمة.

كان عام قحط في استراليا، وكانت أوقاته عصيبـــــة، ومـــن الصعب إيجاد عمل آخر. لم يكن لديه ملاكم معاون، وطعامـــه، لم يكن الأفضل ولا الكافي. كافٍ، عندما استطاع الحصول على عمـــل أخر، عمل أياماً قليلة . كان في الصباح الباكر يجري حول الميدان كي يحافظ على حيوية رجليه. لكن ذلك كان صعباً.

عندما تبارى مع "ساندل" كان يعاني مـــن مشـــكلة ديونـــه مع التجار.

دفع سكرتير نادي "كايتي" ثلاثة جنيهات - حصة الخاســـر- وبعد ذلك رفض المتابعة.

في هـــذه الأيـــام، ومـــرة أخـــرى، أراد اســـتعارة بعـــض الشلنات من أصدقاء قدامى لديهم القدرة على الإعـــــارة في ســـنة القحـط.

صار تدريبه سيئاً —لا فائدة من إخفاء الحقيقـــة- وعليـــه أن يحصل على طعام أفضل دون إرهاق. إضافة لذلك، عندمـــا يكـــون

الإنسان في سن الأربعين، من الصعب أن يكون في حالة جيدة أفضل مقارنة مع سن العشرين.

سأل: كم الوقت الآن؟

مضت زوجته عبرَ الرواق كي تستعلم عن الوقت، ثم عادت.

ـــ التاسعة إلا ربع.

سوف تبدأ المباراة الأولى خلال دقائق. قال "توم"، "التجربة فحسب". بعدئذ مباراة من أربع جولات بين "ويلرويلس" و"كريدلي"، ومباراة من عشر جولات بين "النجم الساطع" وشخص ما، بحار. ومباراتي لا يمكن أن تبدأ قبل ساعة.

في نهاية العشر دقائق الأخيرة من الصمت، نهض على قدميه.

في الحقيقة، لم أحصل على تدريب حقيقي.

حاول الوصول إلى قبعته ثم وثب نحو الباب. لم يبد استعداده لتقبيلها. كان يفعل ذلك لدى مغادرته المنزل دائماً، لكن في هذه الليلة تجرأت هي على تقبيله، أحاطته بذراعيها وأجبرته أن يحني وجهه إليها. شعرت بهدوءٍ قليل على جسد الرجل الضخم.

قالت: حظاً سعيداً، أنت الفائز، افعل ذلك.

ـــ سأفعل ذلك.

ضحك مع محاولة الحماس، بينما ضغطت بذراعيها أكثر مطوقة إياه.

نظر فوق كتفيها إلى أرجاء الغرفة الخالية من الأثاث. زد على ذلك لم يكن قد دفع الأجرة بعد، وزوجته والطفلان، كل ما يملكه. كان يعيش في هذه الغرفة ويخرج ليلاً كي يجلب طعاماً لزوجته وصغيريه، ليس كعامل عصري يذهب إلى صرير آلته، لكنْ؛ كما في الماضي، بواسطة النزال في مباراة ملاكمة.

دمدم وفي صوته إلماحة يأس: سأحصل على الفوز. إذا فُزت، أحصل على ثلاثة جنيهات، عندئذ أستطيع دفع كل المستحق دفعه. وإذا خسرت لن أحصل على بنس كي أركب الترام عائداً إلى المترل.

إلى اللقاء أيتها المرأة العجوز، إذا فزت، سأعود إلى المترل فوراً.

ودعته زوجته قائلةً: وأنا سوف أظل يقظةً أنتظرك.

تبعد "كايتي" مسافة ميلين، تذكر وهو سائر أيام انتصاراته ,مرة توج بطلاً للوزن الثقيل في "نيوساوث ولز", راودته الرغبة بركوب مركبة إلى مباراة الملاكمة، والمناسب أكثر،أن يركب معه نصير ما ويدفع الأجرة عنه. "تومي بورنز" وذاك اليانكي "جاك جونسون"، ركبوا جميعاً في الأوتوموبيل. وهو سارَا ثم، مثل أي رجلٍ أدرك أن صعوبة مسير الميلين لم تكن تمهيداً حسناً لمباراة الملاكمة. كان شخصاً عجوزاً، والعالم لا يتعامل جيداً بالقيلِ والقال مع الأشخاص العجائز.

الآن، هو جيد لأجل لا شيء، ما عدا عـــامل غـــير بـــارع، كذلك، أنفه المكسور وأذنه المهشمة، كانتا ضده حتى في ذلك.

أحسّ برغبتـــــه في تعلـــم التجـــارة، إذ أنهـــا ســـتجعله في النهاية أفضل.

لكن لم يحدثه أحد، وهو أدرك في قرارة نفسه، أنه لا يرغـــب الصمت إذا هم رغبوا. قد تكون الحالة هكذا أسهل. جائزة ضخمـــة - ملاكمات شيقة- فترات الاستراحات والتسكع- متابعة تملقـــات ارتفاع المد المفاجئ، لطمات على الظهر، اهتزاز تصافح الأيـــــدي، حزنُ الأشخاص الأنيقون لابتياعه الشراب من أجل حديـــث لمـــدة خمس دقائق- وتفاخره بذلك، الجمهور الهائج، نهاية الزوبعة، الحكم، الفائز "كينغ"! وفي اليوم التالي يُدوّن اسمـــــه في أعمـــدة الصحـــف الرياضية.

ذلك كان في الماضي! لكن في الوقت الحاضر أدرك بطأه، كان شاباً صاعداً، وهم متقدمون في السن، لا عجب في إخفاقهم، الحالـــة سهلة، العروق المنتفخة، البراجم المنسحقة، الإرهــــاق الشـــديد في عظامهم لما لاقوه من ملاكماتهم السابقة.

تذكّر عندما أخرج العجوز "ستوشربيل" من الحلبـــة في "روش كوترزباي" في الجولة التاسعة. وتذكّر كذلك كيف أن ذاك العجـــوز بكى في غرفة الملابس كطفل. ربما كان للعجوز آنذاك زوجة وطفل أو طفلان ينتظرونه، وربما لم يحصل على أجرتـــه، وربمـــا في تلـــك

الملاكمة كان يرغب بقطعة من شريحة لحم. لقد لاكم "بيل" وحصلَ على معاملة قاسية لا تُصّدق.

استطاع أن يدرك الآن.أن "ستوشربيل" لاكم من أجل رهان أكبر. مضى على تلك المباراة عشرون عاماً ونصف، وكان "توم كينغ" شاباً، يلاكم من أجل الشهرة والمال السهل. لا عجب أن "ستوشربيل" بكى في غرفة الملابس.

حسنٌ، في البدء كانت لديه ميول متعددة للملاكمة.

كان قانون المباراة صارما. ربما كان لأحدهم القدرة على مئة مباراة قاسية، وأخر لديه القدرة على عشر مباريات، كلٌّ منهما يتوافق مع طبيعة مزاجه ونفسه، وهو عندما لاكمهم كان في مقدرته أن يلاكم أكثر منهم، وكان أكثر قسوة، ملاكمات مرهقة عملت على إتعاب القلب والرئتين وأزالت المرونة من الشرايين، والعقد القاسية للعضلة المرنة الملساء الفتية أرهقت الأعصاب والقدرة على الاحتمال، وأجهدت الدماغ والعظام. نعم كان قد لاكم أفضل من الجميع.

لم يبق أحد من زملائه الملاكمين القدماء. لقد شاهد نهاياتهم، وساهم في إنهاء بعضهم. كانوا قد اختبروه أمام أشخاص متقدمين في السن، وكان يفوز عليهم واحداً تلو الأخر. عندما يضحك، مثل "ستوشربيل" - كانوا يبكون في غرفة الملابس- والآن هو الشخص العجوز، ويختبرون الشباب أمامه.

ذاك "بلوك ساندل"، جاء من مكان بعيد مـــن "نيوزلانـــد". ولا أحد في استراليا يعرف عنه شيئاً، لذلك هيؤوه ضـــد العجـــوز "توم كينغ".

إذا فاز "ساندل"، سيحصل على جائزة مالية كبيرة، وسيكون أفضل الملاكمين، لذلك استطاع الاستعداد لمباراة عنيفة، كان يملـــك المؤهلات للفوز بها – مال وشهرة ونجاح- أما ذلك العجوز الأشيب "توم كينغ" كان يدافع بأسلوب عالٍ عن القدر والمصير. لم يكن لديه شيء للفوز سوى ثلاثة جنيهات كــــي يدفعـــها لمـــالك الفنـــدق وأصحاب المتاجر.

بينما كان "توم كينغ" غارقاً في تأملاته، خطر في خياله المتلبـد صورة الشباب. الشباب الرائع، الصعود رائع لا يقهر، عضلات مرنة وجلد حريري، لم يتعب القلب والرئتان أبداً، وقد سخر من محاولـة العجز. نعم، حياة شابة كانت نقمة، حطمت الرجـــــل العجـــوز، و لم تكترث لذلك، على هذا النحو فعلـــــت، حطمـــت نفســـها. وسعّت شرايينها، حطمت البراجم، وكانت رويداً رويـــــداً تحطـــم وتمحق بالشباب. من ناحية الشباب، كـــان دائمـــاً فتيـــاً، العمـــر فقط يهرم.

في شارع "كاستلري" دار نحو اليسار، وشاهد مجموعات مـــن الناس يســـــرعون نحـــو الصالـــة ، تســـكع حشـــد كبـــير مـــن الشباب المشاكسين خــــارج البـــاب وصـــاروا يتحدثـــون عنـــه

بأسلوب ماكر، وقد سمع أحدهم يقول للأخر: ذاك "توم كينغ"! ذاك هو العجوز!.

في الداخل، في طريقه إلى غرفة الملابس، صادف السكرتير الشاب ذا النظرة الحادة وتعابير الوجه التي تنم عن الدهاء، صافحه وسأله: كيف تشعر، توم؟

أجاب "توم": بصحة جيدة، ولو عرف أنه يكذب، مع ذلك إذا كان لديه الجنيه سيعطيه إياه من أجل قطعة لحم جيدة.

عندما ظهر من غرفة الملابس يتبعه مؤيدوه، سار على الممر بين المقاعد متجهاً نحو الحلبة وسط القاعة، علا التصفيق والترحيب من الجمهور المنتظر.

عبر عن شكره للتحيات بالانحناء يميناً وشمالاً، وعرف قليلاً من الوجوه.

أغلب الوجوه كانت لأولاد لم يكونوا قد ولدوا بعد، عندما فاز بأول أمجاده في حلبة الملاكمة وثب برشاقة مرتقياً السلم نحو الحلبة، وانحنى خلال الحبال إلى زاويته حيث جلس على كرسي بلا مسند.

استبدّ بحكم المباراة "جاك بول" شعور ما، ثم صافحه بيده.

كان "جاك بول" ملاكماً محترفاً وقد تخلى عن الملاكمة بسبب سوء صحته. و"توم كينغ" مسرور لتكريم الحكم

له، كلاهما شخصان عجوزان. إذن سوف يتخاشن مع "ساندل" مخالفة صغيرة من القانون، وأدرك أن "بول" يمكن أن يتغاضى عنها معه.

ارتقى الملاكمون الشبان، ذوي الأوزان الثقيلة، الحلبة، وصلر الحكم يقدمهم للجمهور ويعلن عن تحدياتهم لبعضهم.

"الشاب برونو" تحدى "بيل" من جنوب "سيدني"، حدّ الرهان خمسون جنيهاً. دوت عاصفة من التصفيق، ثم صفق الجمهور مرة أخرى عندما ارتقى "ساندل" الحلبة وجلس في زاويته.

نظر "توم كينغ" إليه بفضول، بعد لحظات سيشتبكان مع بعضهما بملاكمة عديمة الرحمة، كل منهما سيحاول بكل قوته ضرب الأخر بعنفٍ في اللاوعي. كان وجه "ساندل" وسيماً، شديد القوة، متوجاً بجعدة كتلة شعر أصفر كثيف مجعد، عنقٌ نامي العضلات يشير إلى عظمةٍ جَسدية.

في زاوية أخرى، تصافح الشاب "برونتو" ومنافسه مع المسؤولين عن المباريات، ثم انسحبا من الحلبة. تتابعت التحديات. كل شاب يرتقي الحلبة يصرخ بقوة ومهارة.

منذ أعوام قليلة، في أيام ذروته كان لا يُقهر. لكن الآن ، يجلس مسلوب القدرة على الحركة، لا يستطيع طرد خيال حياته الشابة من ناظريه.

كانت هذه الشبابية تتأجج دائماً في مباراة الملاكمة، يرتقي الحلبة خلال الحبال ويصرخ متحدياً، ودائماً الملاكمون الأكبر سناً يُهزَمون أمامه.

الملاكمون الشباب يرتقون سُلمَ النجاح فوق أجساد الملاكمين العُجز. ودائماً، يزدادون شباباً أكثر فأكثر- شباب لا يُقاوم- ودائماً يفوزون عليهم.

كذلك، هم أنفسهم يتقدمون بالسن، ويرتحلون نفس الدرب تنازلاً، بينما خلفهم، ودائماً شباب أبدي - الشبان الجدد، ينمون مفعمين بالحيوية ويطرحون أسلافهم، وهكذا، حتى نهاية الزمن، ذلك الشباب يملك إرادة لا تموت أبداً.

نظر "توم كينغ" عالياً نحو مقصورة الصحافة، ثم أشار إلى "مورغان"، من جريدة "سبورت مان" و"كوريت" من جريدة "الريفير".

بعد ذلك، مدّ يديه، بينما قام مساعداه "سد سوليفان" و"شارلي باتس" بإلباسه القفازين، ثم ربطا عقدتيهما.

راقب عن كثب أحد مساعدي "ساندل" الذي بدأ يفحص بحسمٍ الأشرطة على مفاصل أصابع "توم كينغ"، كذلك كان أحد مساعديه يقوم بعمله في زاوية "ساندل" مثل الحكم.

عندما خلع "ساندل" سترته، نظر "توم كينغ" إليه، فشاهد ملاكماً من الوزن الثقيل، شاباً راسخ الصدر، عضلاته القوية تنسابُ بحيوية تحت الجلد الأبيض.

كامل الجسم ينبض حيوية وقوة، وينمو مع الحياة. "توم كينغ" عرف تلك الحياة التي كانت أبداً تترّ عذوبتها خلال تـــأملات الألم الخفيف المتواصل أثناء مباريات الملاكمة الطويلة التي دفـــع خلالهـــا الشباب ضريبة ثمينة. تقدم الملاكمان يقابل كل منهما الأخر، وعندما أعلن الجرس عن بدء المباراة انسحب مساعدوهما خارج الحلبة، وبعد أن تصافحا، اتخذا وضع بدء المباراة. ومباشرة، كالآلات الفولاذيـــة، وتوازن الوثبات على المقداح، يثب "ساندل" إلى الأمام ثم الخلـــف ثم ثانية نحو الأمام، يلكم باليسرى نحو العينين، واليمين نحو الأضـــلاع، يضرب ضربات مضادة، يرقص برشاقة هنا وهناك. كـــان خفيـــف الحركة وذكياً. والجمهور يُعبِّر عن الاستحسان.

لم يكن "توم كينغ" متألقاً. وقد اشترك سابقاً في عدة مباريات ومع شباب أيضاً. أدرك "كينغ" لماذا الضربات رشيقة وسريعة. مـــن الواضح أن "ساندل" يسعى للحصول على نقاط، وذلك كان متوقعاً. أسلوب الشاب،يرغب التفوق والامتياز في تمرد وحشي وانقضـــاض عنيف، خصائص المقابلة الساحقة، الشهرة اللامحدودة للقوة والرغبة.

كان "ساندل" يرقص هنا وهناك، أمامـــاً، خلفـــاً، بقدمـــين رشيقتين، وقلب نمر، حيوية مدهشة للجسد الأبيض والعضلات المرنة التي تتحرك بأسلوب رائع، يثب ويتفادى بجسده الضربات كـــالكوك الطائر من نشاط إلى نشاط، يحاول القضاء على "توم كينغ" الـــذي ظلّ ثابتاً ويتحمل بصبر.

لم يكن لدى "كينغ" شيء يعمله كي يفقد منافسه بعض قوته. ابتسم ابتسامة عريضة مع نفسه عندما أحنى رأسه بترو بعد أن تلقى ضربة ثقيلة على أعلى رأسه. كان فِعلُ ذلك أمراً بارعاً، ويُعَدُّ ذلك تفوُّقاً مشروعاً حسب قوانين مباراة الملاكمة.

الملاكم يهتم بالاعتناء ببراجمه، وإذا أصرّ على ضرب الخصم على قمة الرأس فهو يخاطر بها.

استطاع "كينغ" إخفاض رأسه وترك طنين الضربة السابقة غير المؤذية، لكنه تذكر مبارياته القديمة، وكيف حطم أول برجمة على رأس "ويلش تيرور". تلك الضربة جعلت "ساندل" يُحطم إحدى البراجم. لكن لا يرغب "ساندل" بالاكتراث الآن. استطاع المتابعة لا مبالياً يضرب بقسوة. لكن فيما بعد، بعد معارك الحلبة الطويلة، سيندم لفقدان ذلك البرجم ويتذكر كيف حطمه على رأس "توم كينغ".

كانت الجولة الأولى، وهتافات الجمهور لصالح "ساندل".

بهجومه الزوبعي واللكمات السريعة أربك "توم كينغ"، و"كينغ" لم يفعل شيئاً سوى أنه اكتفى بحماية نفسه، والإعاقة، يتفادى بجسمه الضربات ويتماسك مع "ساندل" بقوة كي يتفادى المعاملة القاسية. أحياناً، عندما تستقر ثقل لكمة على رأسه، يتظاهر بالتمايل هنا وهناك ببلاهة، لم يثب أبداً أو استهلك مقداراً قليلاً من القوة.

كان على "ساندل" أن يزبّد زبدَ الشباب على شيخ حـــــذر، استطاع أن يتجرأ على المقابلة. كل حركات "كينغ" بطيئة ومنهجية، جفنا عينيه ثقيلان، حركة عينيه البطيئة أشارت وكأنه نصف نـائم أو مصابٌ بدوارٍ من ضربة عنيفة. كانت عيناه تشاهد كلّ شيء خـلال السنوات الاثنتي والعشرين ونيفاً في الحلبة. لا تطرف أو تضطـــــرب أمام لكمة توشك أن تحدث، ثم قاسَ التفاوت بعد نظرة فاترة.

في نهاية الجولة، أُجلِسَ في زاويته، ثم، استلقى ممدداً رجليـــــه، وأراح ذراعيه على الزاوية اليمنى للحبال، صدره وبطنــــــه يعلـــوان وينخفضان بعمق عندما يتنفس الهواء بمساعدة مناشف مساعديه.

أصغى بعينـــين مغمضتـــين إلى أصـــوات الجمـــهور: لمـــاذا لا تلاكم، توم؟ هل أنت خائف؟ وتناهى إلى سمعه صوت الرجـــــل على المقعد المقابل منتقداً: إنه جامدٌ، لا يستطيع التحـــرك بســـرعةٍ، أراهن بجنيهين على "ساندل".

أعلن الجرس بدء الجولة الثانية، واندفع الرجلان كـــــلاً مـــن زاويته. تقدم "ساندل" ثلاث أرباع المسافة، بينما اكتفــــى "تـــوم" بالتقدم المسافة الأقصر. حالة توافق مع حكمته في التدبير. لم يكن قد تدرّب جيداً، ولم يأكل كفاية، وكل خطوة يأخذها في الحســـبان. إضافة لذلك لقد سار مسافة ميلين إلى موقع الحلبة.

هذه الجولة، كالجولة الأولى. هجوم "ســـاندل" كالزوبعـــة، دمدمات السخط من المشاهدين يتساءَلون لماذا "توم" لا يلكم؟ بينما

"توم" يتظاهر بالهجوم، يخدع، ويسدد ببطء لكمات عقيمة، لم يفعل "توم" شيئاً سوى الإحباط والحيلة والتماسك مع الخصم بقوة. وعندما أراد "ساندل" أن يجعل التماسك أكثر إحكاماً، يرفض "توم".

ابتسم ابتسامة عريضة بتأثر حزين لا ريب فيه في هدوء اندفاع هجومه المتكرر، وتابع يُدلل قوته بيقظة شديدة.

كان "ساندل" شاباً، و"توم" صار يفقد قوته بالتنازل السخي للشباب. منذ عهد بعيد نُسبت إلى "كينغ" زعامة الحلبة، الحكمة.

تحرك ببطء، راقب بعينين ورأس بارد، انتظر زبدَ "ساندل" يزبد. بدا على وجوه أغلب المشاهدين أن تفوق "توم" مستحيل، وقد عبروا عن آرائهم برهان ثلاثة مقابل واحد لصالح "ساندل".

لكن كان يوجد أشخاص قلائل ممن عرفوا "توم" منذ زمن، راهنوا لصالحه. بدأت الجولة الثالثة كالعادة، انقضت نصف دقيقة و"ساندل" يسدد بثقة اللكمات القوية، كاشفاً الجبهة اليسرى.

نظرات "كينغ" وذراعه اليمنى اندفعت في نفس اللحظات. كانت لكمته الأولى الحقيقية - حركة دائرية خاطفة مع تقوسٍ للذراع كي يجعلها صارمة، مع ثقل جسم نصف مرتكز- كأسدٍ يتظاهر بالنعاس، وفجأة يدفع كفه بشكل مفاجئ كالبرق.

أصيبَ "ساندل" على جانب الفك، وشعر كالثور المخصي. أطلق الجمهور لهاثاً ودمدم استحساناً مليئاً بالروعة. لم يكن "كينغ"

جامداً، لقد استطاع أن يسدد لكمة كضربة مطرقة. ترنح "ساندل"، تمايل من جانب إلى أخر، حاول أن يثبت في مكانه، لكن صيحـــات مساعديه اضطرته أن يحصل على العدّ.

ركع على ركبة واحدة، مستعداً للنهوض، ثم تريث، بينمـــا كان الحكم يقف بجانبه يعدُّ في أذنه. عند الرقم تسعة، نهض في وضع قتالي، و"توم" يقابله، لقد أسِفَ لتلك الضربة التي كانت بعيدة بوصة واحدة عن نقطة الفك، التي كانت ستكون الضربة القاضية، وبالتـالي كان يستطيع الحصول على ثلاثين جنيهاً ويعود إلى زوجته وطفليـــه. تتابعت الجولة بدقائقها الثلاث إلى النهاية. وكان "ساندل" مُتســـماً باحترام خصمه وبطء حركات "كينغ" ونظراته الناعسة دائماً.

عند اقتراب الجولة من النهايـــــة، حـــذر مســـاعدو "تـــوم كينغ" الجاثمون خارج الحلبة طـــــالبين منـــه أن يكـــون في جهـــة زاويتـه

عندما قُرع الجرس مُعلناً انتهاء الجولة الثالثة، جلس "تـــوم" في زاويته المخصصة، بينما سار "ساندل" عبر قطر الحلبـــة إلى زاويتـــه. كان ذلك شيئاً قليلاً، لكن تلك الأمور الصغيرة كانت في حســـــبان "توم كينغ"، الخطوات الكثيرة المتعددة، تُضعف من نشاط "ساندل"، ويهدر قسماً من دقيقة الاستراحة النفيسة.

في بداية كل جولة، كان "توم كينغ" يهدر الوقت بالتبـــــاطؤ وهو منطلقاً من زاويته، يُجبر خصمه على التقدم المسافة الأكبر. وفي

نهاية كل جولة يناور كي يكون قريباً من زاويته، ولذلك يستطيع الجلوس فوراً.

انقضت جولتان، وفي الجولتين كان "توم كينغ" شحيحاً بالجهد، بينما كان "ساندل" مُبذراً. كان "توم كينغ" مصراً على تباطئه العنيد في محاولة منه الحفاظ على قوته، وكان يحتقر البكاء لأشخاص حاديّ الطباع.

في الجولة السادسة، ومرة أخرى، كان "ساندل" لا مبالياً، انطلقت يمين "توم كينغ" الضخمة بسرعة البرق نحو فك "ساندل"، وثانية حصل "ساندل" على العدّ التاسع.

في الجولة السابعة، هدأ "ساندل" وقرر كيف تكون الملاكمة الأصعب في خبرته. كان "توم كينغ" رجلاً عجوزاً، لكن الأفضل ممن كان قد قابل - الرجل العجوز الذي لم يفقد أبداً اتزانه أو تزعمه- الذي كان رائعاً في الدفاع، من كانت للكماته تأثير هراوة كثيرة العقد، ومن كان يصرع خصمه باليد الأخرى.

عندما جلس "توم" في زاويته يُحدق نحو الجانب الأخر إلى خصمه، راوده تفكير أن ذروة خبرته وشباب "ساندل" تؤلفان بطل العالم في الوزن الثقيل. لكن كان ذلك يُزعج، "ساندل" لن يصبح بطل العالم. إنه يفتقر الخبرة، والأسلوب الوحيد ليحصل عليها، عليه أن يبتاعها بشبابه، وعندما يحصل عليها، يصبح رجلاً عجوزاً.

استعمل"كينغ" كل ميزة عرفها، لم يفوّت أبداً فرصة الإمساك بقوة، وفي الواقع كان يحسم معظم الأمور بوضع كتفه بصلابة ضمن الحبال الأخرى. في فلسفة الحلبة، كان للكتف أثر شديد بقدر ما الأذى كان معنياً والتفكير الأعظم أفضل بقدر ما أهمية المحاولة. وفي الإمساكات أراح "كينغ" ثقله أيضاً على خصمه، وكان كارهاً أن يدعه يفلت. هذا ما يُجبر الحكم على التدخل، ويفصلهما عن بعضهما. كان "ساندل" لا يرتاح، لم يستطع الإحجام عن استخدام الذراعين المتألقين وعضلاته المفتولة، وعندما ستندفع الأخرى بسرعة داخل التماسك المحكم، تضرب الكتف مقابل الحبال، ويريح "كينغ" رأسه تحت ذراع "ساندل" الأيسر.

وغالباً، لوحَ "ساندل" بثبات بذراعه اليمنى خلف ظهره ثم نحو بروز الوجه، كانت ضربة ذكية، اندهاش كبير من الجمهور، لكن الضربة غير خطرة، وقد بدد قوة كبيرة لكن "ساندل" لا يعرف التعب، و"كينغ" يبتسم ابتسامة عريضة ويثبت بعناد.

سدد "ساندل" لكمة اليمين القوية إلى جسد "كينغ" وقفز "كينغ" الأيسر الرشيق الذي يُعجب به الملاكمون القدماء يتجه نحو العضلات قبل تأثير لكمة ساندل.

كانت حقيقة، اللكمة سددت مرة تلو الأخرى، لكن في كل مرة كانت تفقد من قوتها بواسطة تلك الضربة الحقيقية على العضلات. في الجولة التاسعة، سدد "توم كينغ" يمينية دائرية بشكل

قوسٍ نحو الفك، وثلاث مرات تهاوى جسم "ساندل" ثقيـــلاً نحـــو خشبة الزاوية، وفي كل مرة يحصل على العدّ التاسع ثم ينهض علـــى قدميه، مترنحاً ومتضايقاً، منصدماً، لكن يظل قوياً.

بدد جهداً قليلاً، وفقد كثيراً من سرعته. يلاكـــم بشراســـة ويعتمد على مصدر قوته الرئيسة، القوة التي يملكها الشباب. ومصدر قوة "كينغ" الرئيسة كانت خبرته وحنكته.

عندما ضعفت حيويته، وخمد نشاطه، اعتمد أسلوب المكـــر وخبرة الملاكمات الطويلة مع الحرص برعاية القوة. لقد تعلـــم أن لا يقوم بحركة غير ضرورية، و تعلم كذلك كيـــف يغـــري الخصـــم لإضاعة الوقت.

ثانية، وثانية، بخدعة قدميه ويده وجسمه، واصـــل بـــإغواء "ساندل" نحو قفزة خلفية، ينحني، يتفادى، أو يضرب ضربة مضادة . ارتاح "كينغ"، لكنه لم يتح الفرصة لـــ "ساندل" كي يرتاح. كـانت هذه استراتيجية الكبير في السّن.

من بداية الجولة العاشرة، بدأ "توم كينغ" يوقف اندفاعــــات خصمه بضربات يساريه مستقيمة نحو الوجـــه، وازداد "ســـاندل" حرصاً، استجاب بسحب اليد اليسرى، ويوجـــه يمنـــاه في دوران خطاف نحو طرف الرأس. وترتفع إلى الأعلى أيضاً، كي يكون لهـــا تأثير فعال؛ وعندما استقرت اللكمة، شعر "توم كينغ" بهبوط آليـــف لستار أسود للاوعي عبر عقله. للحظة، أو جزء قليل من اللحظـــة،

على الأصح، توقف. في لحظة واحدة شاهد خصمه يتملص خارجاً من مجال الطيف وخلفية الصورة البيضاء، يراقب الوجوه؛ في اللحظة التالية، شاهد خصمه وخلفية الوجوه ثانيةً.

شعرَ وكأنه نام للحظة، ثم فتح عينيه مرة أخرى، وبعد ذلك كانت الفترة الفاصلة للعقل اللاواعي قصيرة وبالغة في القصر، لذلك لا يوجد وقت له للسقوط. شاهده الجمهور يترنح، تنهار ركبتاه، ثم شاهدوه يستعيد وعيه ويحمي ذقنه بكتفه الأيسر.

كرر "ساندل" اللكمة مرات عديدة كي يحافظ على إغماءة "توم كينغ"، لكن كينغ أحدث أخيراً، دفاعه ورد الضربة بضدها. أخذ نصف خطوة إلى الخلف، يخدع باليسرى، وفي نفس الوقت يسدد لكمة من الأسفل إلى الأعلى نحو الخصم بكامل قوة يده اليمنى. وصلت اللكمة بشكل زاوية قائمة على وجه "ساندل"، الذي ارتفع في الهواء ثم تحرك بطريقة لولبيه، يضرب الحشية برأسه وكتفيه.

أحرز "كينغ" ذلك مرتين، ثم تحرر ودفع خصمه نحو الحبال.

لم يعط "ساندل" فرصة كي يرتاح أو يجمع نفسه، لكم بعنف لكمةً إثر لكمة حتى أن المشاهدين وقفوا على أقدامهم وقد امتلأ الهواء بهدير التصفيق المتواصل وعبارات الإطراء.

لكن قوة واحتمال "ساندل" ثابتة، لقد واصل كي يظل واقفاً على قدميه. بدت الضربة القاضية مؤكدة، وارتعب ضابط البوليس

من المعاملة القاسية المرعبة. نهض ووقف جانب الحلبة كي يوقف المباراة.

أعلن الجرس عن انتهاء الجولة، ثم تهاوى "ساندل" نحو زاويته، وهو يحتجّ على ضابط البوليس أنه ما زال قوياً وثابتاً. وليثبت ذلك، قفز قفزتين خلفاً. ثم تراجع ضابط البوليس.

استلقى "توم كينغ" في زاويته على ظهره يتنفس بصعوبة. كان حزيناً لما أصابه من خيبة أملٍ. إذا توقفت المباراة، فإن الحكم، بحكمِ الظروف والاضطرار سوف يعلن فوزه، وستكون الجائزة المالية من نصيبه.

بخلاف "ساندل"، لم يلاكم من أجل المجد أو المهنة، لكنه يلاكم من أجل ثلاثين جنيهاً. والآن، سوف يتعافى "ساندل" في فترة الاستراحة. (الشباب سوف يخدمك) ومضت هذه العبارة في عقل "توم كينغ"، ثم تذكر المرة الأولى التي سمعها، في ليلة المباراة التي هزم بها "ستوشربيل". إن المتأنق الذي قدمّ له شراباً وربّت على كتفه، هو الذي استعمل هذه الكلمات، الشباب، سوف يخدمك! كان الأنيق محقاً.

في تلك الليلة في الزمان الماضي، كان هو شاباً. الليلة، جلس الشباب في الزاوية المقابلة. في هذه المباراة —وهو الرجل العجوز– لاكم مدة نصف ساعة. هل يلاكم مثل "ساندل"؟ لن يستطيع الثبات خمسين دقيقة.

لكن النقطة الأساسية، لم يسترد عافيته. هذه العروق المنتصبة، ومحاولة القلب المؤلمة، لا تمكنه من جمع قوته في فترات الاستراحة بين الجولات. ثم، لم تكن لديه قوة كافية أيضاً. رجلاه ثقيلتان وبدأتا بالتشنج. لم يكن لديه الخيار بالسير مسافة ميلين إلى حلبة الملاكمة. وكان قد أعدَّ برغبة شديدة شريحة اللحم في الصباح. شعر بحقد عظيم على الجزارين الذين رفضوا تسليفه. لقد كان ذلك صعباً على رجل عجوز كي يذهب إلى مباراة ملاكمة بدون طعام كافٍ. وقطعة من شريحة اللحم مثل تلك كانت شيئاً قليلاً.

بنسات قليلة في أحسن الأحوال، مع ذلك تعني ثلاثين جنيهاً له.

مع إعلان الجرس بداية الجولة الحادية عشرة، اندفع يصنع عرضاً من النشاط المفعم بالحيوية، حيث أنه في الواقع لم يحتفظ بهدوئه.

عرف "كينغ" من أجل ماذا يكون ذلك - كالسابق، المباراة نفسها- لقد ثبت كي ينقذ نفسه، عندئذ، اندفع بحرية بينما كان "ساندل" يُهيئ نفسه. خدع بيسراه، وسدد ضربة خطافة نحو الأعلى، ثم خطى نصف خطوة نحو الوراء، سدد لكمة كاملة إلى الوجه، ثم انهار "ساندل" فوق الحشية. بعد ذلك لم يدعه يرتاح أبداً، يسدد ويسدد أكثر، يضرب "ساندل" نحو الحبال، يسدد إليه كل أنواع اللكمات، ينتزع نفسه من امساكاته القوية. ودائماً عندما يهمّ

"ساندل" بالسقوط، يمسكه بإحدى اليدين ثم يقذفه بالأخرى نحو الحبال بحيث لا يستطيع السقوط. اهتاج الجمهور وهتف: تابع ذلك، توم، اقض عليه! اقض عليه! ووقف المشاهدون جانب الحلبة كي يشاهدوا نهاية الزوبعة.

"توم كينغ" الذي صان قوته لمدة نصف ساعة، أنفقها الآن بإسراف في مسعى واحد عظيم يعرفه. كانت فرصة واحدة - الآن أو مطلقاً.

كانت قوته تضعف بسرعة، وكان يأمل ذلك قبل انحسارها منه، سيرهق خصمه من أجل العدّ. وبينما يواصل الضرب والقوة، يستنتج بهدوء وزن لكماته ونوعها. وأدرك كم كان صعباً أن يصرع "ساندل" ، خصمه بضربة لا يستطيع النهوض بعدها.

قدرته على التحمل والثبات كانت الدرجة القصوى، ثبات الشباب. كان "ساندل" ، من المؤكد ، في طريقه إلى النجاح والشهرة. الطبيعة الصارمة وحدها التي تصنع ملاكمين ناجحين. "ساندل" يترنح ويتمايل، لكن رجلي "توم" تشنجتا وخذلته مفاصل أصابعه. مع ذلك ملأ نفسه عزماً وتصميماً ليسدد لكمات عنيفة، وكلّ لكمة أشعرته بألم مبرح بتشويه يديه.

مع ذلك، لا يلاقي الآن معاملة قاسية بشكل عملي، كان يضعف بسرعة كأنه مثل الأخر. اللكمات ذهبت سدى، ولا أهمية أكبر لها، وكل لكمة هي نتيجة لجهد قاس. كانت رجلاه كخيطي

رصاص، سحبتا تحته بوضوح، بينما ابتهج مؤيدو "ســـاندل" لهـــذه العلامة، وبدأوا يشجعون رجلهم.

باندفاع عنيف ومفاجئ سدد "كينغ" لكمتـــين متعـــاقبتين، اليسرى ارتفعت أكثر مما يجب إلى فم المعده، وسُددت اليمنى نحـــو الفك. كانت اللكمتان ضعيفتين، ومع ذلك الضعف سقط "ساندل" واستلقى يرتجف. وقف الحكم فوقه يصرخ بأرقام العدّ في أذنـــه. إذا لم ينهض "ساندل" قبل العدّ الثامن سيخسر المباراة.

وقف الجمهور صامتاً، بينما ارتاح "توم كينغ" على رجليـــه المشنجتين. أمام عينيه بحر من الوجوه تتمايل وتنخفض، بينما تنـــاهى صوت الحكم إلى أذنيه.. بعد ذلك، شيء لا يُصدّق، لقد اســـتطاع "ساندل" النهوض، الشباب فقط يستطيع ذلك، و"ساندل" نهض. في العدّ الرابع رفع وجهه، ثم التمس طريقه زاحفاً نحو الحبال بعمـــاء. في العد السابع رفع نفسه على ركبتيه، استراح، أدار رأسه بترنح علـــى كتفيه.عندما هتف الحكم؛ تسعة! وقف "ساندل" على رجليه بشكل صحيح، لوى ذراعه الأيسر حول وجهه، ولوى الذراع الأيمن نحـــو الأمام. لقد اتخذ وضعاً دفاعياً، ثم تمايل أماماً باتجاه "كينغ" أمـــلاً أن يحدث تماسكاً ويكسب وقتاً أكثر.

في لحظة نهوض "ساندل" اقترب منه "كينغ" وسدد لكمتـــين لفعتا على الذراعين. في اللحظة التالية، "ساندل" يتماسك معه بيأس، بينما يحاول الحكم جاهداً إبعادهما عن بعضهما. وكان "كينغ" يحاول دفع نفسه على التحرر.

عرف "كينغ" كيف تُستعاد حيوية الشباب وسرعة عودتها للشاب "ساندل"، كل لكمة واحدة عنيفة تمنع عودة الحيوية إذا هو تمكن من ذلك. فقد كان "ساندل" متفوقاً عليه، لقد أحرز نقاطاً أكثر منه، وفوزه مؤكد. حرر نفسه من التماسك، توازن على الخط الشعري بين الهزيمة أو الفوز. لكمة واحدة عنيفة سترميه أرضاً، ثم تكون هي الضربة القاضية. تذكر "كينغ" - في لحظة التفوق- قطعة شريحة اللحم، وأدرك عندئذ كم تكون ضرورية خلف تلك الضربة.

شجعَ نفسه وسدد لكمة، لكن، ليست سريعة ولا ثقيلة كفاية. تمايل "ساندل"، لكنه لم يسقط، تهاوى خلفاً نحو الحبال وأمسك بها, تَبعَه "كينغ"، ثم بألم لاذع مفاجئ، يشبه الانحلال، سدد لكمة أخرى. لكمة يسارية ضعيفة من شدة الإنهاك. تلك اللكمة كانت موجهة لضرب الفك وليس أعلى الكتف. لقد أراد أن تكون اللكمة أعلى، لكن العضلات المنهكة خذلته. لقد تخلى جسده عنه. ترنح خلفاً وكاد أن يسقط.

جاهد مرة أخرى. لكن هذه المرة أخفقت لكمته تماماً. ومن الضعف اللاريب فيه، سقط "كينغ" على "ساندل" وتماسك بإحكام، أمسك به كي ينقذ نفسه من السقوط على الأرض.

لم يحاول "كينغ" تحرير نفسه، لقد استنفذ هجومه، كان واهناً. الشبابية أصبحت تُفيد. استطاع أن يشعر في هذا التماسك أن "ساندل" يزداد قوة.

عندما أبعدهما الحكم عن بعضهما، شاهد بعينيــــه اســـتعادة الشباب. من لحظة إلى أخرى ازداد "ساندل" قوة.

كانت لكماته في البداية ضعيفة وبدون تأثـــير، ثم أصبحـــت رشيقة ودقيقة. شاهدت عينا "توم كينغ" الغائمتان القبضة القفازيـــة تُسَددَ إلى فكه، صمم أن يحذرها ويعترضها بذراعه. شاهد الخطـــر، صمم على العمل، لكن كانت الذراع ثقيلة أيضاً. بدت مُثقلةً بمئـــة وزنةِ رصاص، لا ترغب الذراع أن ترتفع، وهو جـــاهد ليرفعـــها. عندئذ وصلت القبضة القفازية بإحكام.

"توم كينغ" تمرسَ الحركة السريعة الخاطفة، كانت تشبه ومضة الكهرباء. وبتواقتٍ طوقه الستار المظلم.

عندما فتح عينيه مرة أخرى وجَدَ نفسه في زاويته وسمع هتاف الجمهور وكأنه هدير الأمواج المتكسرة على شاطئ "بوندي"

كان "سيد سوليفان" يرش الماء البارد برذاذ ينعش وجه وصدر "توم كينغ"، ويضغط الاسفنجة الرطبة على أسفل الدماغ. نُزِعَ قفازا "توم كينغ"، بينما انحنى "ساندل" فوقه يلوح بيده. يتمتم عبارات نحو الرجل الذي صرعه، ثم أعاد القبضة بقوة جعلت مفـــاصل أصابعـــه المعطوبة بالضرب تؤكد.

خطى نحو مركز الحلبة وأخمد حالة الصخب كـــي يســـمع الجمهور قبول تحدي الشاب ويبدي استعداده لزيادة المراهنة إلى مئـــة

جنيه. نظر "توم كينغ" بلا مبالاة بينما كان مساعدوه يمسحون ويجففون الماء عن وجهه، وهمسوا له أن يغادر الحلبة.

كانت الحالة غير عادية، طبيعة تزعج، شعر بالجوع، مع أن حالة الإغماء الشديدة، خفقان القلب المتلاحق إلى وخز المعده، انتشر إلى كامل الجسد. تذكر عندما أجبر "ساندل" على الترنح والتمايل على ميزان الخط الشعري للهزيمة. آه، قطعة شريحة اللحم تلك كانت تستطيع عمل ذلك! كان بحاجة إلى تلك القطعة فقط من أجل الضربة الحاسمة، وهو قد أضاعها. كل ذلك بسبب قطعة شريحة اللحم.

عندما أعانه مساعدوه بالنزول من الحلبة، اندفع متحرراً منهم، انحنى بين الحبال دون أن يساعده أحد، وقفز متثاقلاً على الأرض. تبعه مساعدوه وفسحوا له طريقاً بين الكراسي في الممر المزدحم.

لدى مغادرته غرفة الملابس نحو الطريق، وفي مدخل الردهة، سأله شاب: لماذا لم تحصل على الفوز عندما كان باستطاعتك ذلك؟

أجابه "توم كينغ": اذهب إلى الجحيم! ثم اجتاز الردهة نحو رصيف المشاة.

كانت أبواب الخمارة في زاوية الشارع تتأرجح واسعة، وشاهد الأضواء وابتسامات النادلات، سمع أصواتاً عديدة تناقش مباراة الملاكمة، ورنين النقود على البار. دعاه شخص ما لتناول الشراب، تردد، ثم رفض وتابع طريقه.

لم يكن لديه قطعة نقدية نحاسية في جيبه، وبدا الميلان إلى مترله مسافة طويلة.

بلا شك، قد أصبح عجوزاً.

جلسَ فجأة على مقعد في معبر الميدان، فقد شجاعته وتوترت أعصابه، عندما فكرّ بزوجته التي تنتظره ساهرةً كي تعرف نتيجة المباراة. إن ذلك أصعب من أي ضربة قاضية.

أشعرته آلام مفاصل أصابعه المحطمة بالضعف. إذا استطاع إيجاد عمل ما، لن يكون باستطاعته أن يمسك معولاً أو مقبضاً قبل أسبوع.

كان الوجيب الغاضب في وخز معدته يُقزز النفس. قهره بؤسه، وبدت في عينيه رطوبة غير مرغوبة بها.

أخفى وجهه بين ذراعيه عندما بكى. تذكر "ستوشربيل" وكيف خدمه تلك الليلة في الزمان البعيد.

مسكين "ستوشربيل" العجوز!

استطاع "توم كينغ" أن يفهم الآن لماذا بكى "بيل" في غرفة الملابس.

أوديسا الشمال

وقصص أخرى

في هذا الكون أمور أعظم من معرفتنا، وحيالها لا نستطيع تحديد الخطأ من الصواب،وليس لنا الحق في إصدار الحكم .

تعيدنا الأحداث التي تدور في هذه المجموعة إلى جدلية الحياة الإنسانية، وتبين تأثير التمدن والمعرفة على مشاعرنا وبساطتها إذا ما قورنت بمجتمعات أخرى . وتوضح ضيق الرؤية التي يعكسها الحصر الجغرافي والنفسي للإنسان .

الناشر .

